

لا يغمز الساق من أين ولا نصب
ولا يعرض على شرسوفه الصفر
وأصلها على هذا القول مأينة ، فحولوا ضمة
الياء الى الهمزة ، وجعلوا الياء واوا لانضمام ما
قبلها ، كما قال الآخر :

وكننت اذا جاري دعا لمضوفة
اشمر حتى ينصف الساق مثزري

فمضوفة مفعلة من الضيافة ، وأصلها مضيفة ،
ففعل بها ما فعل بمثونة . وتكوين المثونة فعولة من
منت الرجل ، فتهمز الواو لانضمامها ، كما قال امرؤ
القيس :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها
ثوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فثوم فعول من النوم ، همز الواو لانضمامها «
وامثال ذلك في الكتاب كثيرة .

وعنى في الحشو أيضا باللفات . فكان يقول :
« أخبرنا أبو العباس قال : يقال : هو الباز وهو
البازي ، فمن قال : هو الباز ، قال في التثنية :
هما البازان والجمع البازان ، على مثال قولهم :
الخال والخيالان ، ومن قال : هو البازي قال في
التثنية : هما البازيان ، وفي الجمع البازة على مثال
القاضي والقضاة . قال أبو بكر : في الباز لغة ثلاثة
لم يذكرها في هذا الكتاب وذكرها لنا في بعض
أماله قال : ويقال : هو الباز ، بهمز الالف مثل
الفأس والكأس ، وتجمعه في أدنى العدد من ثلاثة
الى عشرة فتقول : ثلاثة أبوز ، كما تقول : أفؤس
وأكؤس . فاذا كثرت فهي البؤوز ، كما تقول
كؤوس وفؤوس . فجمع القلة على أفعل مثل الأفلس
والأبحر ، وجمع الكثرة على الفعول مثل الفلوسوس
والبحور . قال أبو بكر : في الباز لغة رابعة ، يقال :
هو البازي ، بياء مشددة تشبه ياء النسبة . » .

وكثر في حشوه النقد وخاصة نقد قطرب وابن
قتيبة . وأقام ابن الأنباري كثيرا من نقده على تعارض
الأقوال المختلفة من اللغويين . فأورد أقوالهم وقارن
بينها ليخلص الى الرأي الصواب عنده ، مثل (20) :
« القرء حرف من الاضداد . يقال : القرء للظهر ،
وهو مذهب أهل الحجاز ، والقرء للحيض ، وهو

مذهب أهل العراق . ويقال في جمعه اقراء وقروء .
وقال الأصمعي عن أبي عمرو : يقال : قد دفع فلان
الى فلانة جاريته تقرئها ، يعني أن تحيض ثم تطهر
للاستبراء . ويقال : القرء هو الوقت الذي يجوز أن
يكون فيه حيض ، ويجوز أن يكون فيه طهر ...
ويقال : قد أقرأت النجوم اذا غابت . قال أبو بكر :
وهذا حجة لمن قال : الاقراء الاطهار ، لانها خرجت من
حال الطلوع الى حال الغيبة « وقال الأصمعي وأبو
عبيد : يقال : قد أقرأت المرأة اذا دنا حيضها ،
وأقرأت اذا دنا طهرها . قال أبو بكر : هذه رواية
أبي عبيد عنهما . وروى غيره : أقرأت اذا حاضت ،
وأقرأت اذا طهرت . وحكى بعضهم قرأت ، بغير
الف في المعنيين جميعا . والصحيح عندي ما رواه
أبو عبيد . »

وقد رأينا - فيما سبق - أن ابن الأنباري نقد
بعض الاضداد ، لأن المعنيين لصيغتين مختلفتين لا
صفة واحدة مثل فعل وأفعل ، أو لأن المعنى الثاني
لللفظ غير شائع الاستعمال ، أو لعدم وجود شواهد
نسمع المعنى الثاني . ويمكن أن نضيف اليها ما يحدد
السياق معناه ، مثل (21) : « قال قطرب : من
الاضداد قولهم أليت المرأة تالي ، اذا عظمت أيتها ،
وأليت الشاة وغيرها ، اذا قطعت أيتها . قال أبو
بكر : وليس هو عندي من الاضداد ، لأن كل
واحد من الحرفين ينفرد بمعنى واحد ، ولا يقع
على معنيين متضادين . »

وإذا قارنا بين نقد أبي حاتم ونقد ابن الأنباري ،
وجدنا الاول منهما معتدا بنفسه ومعلوماته ، عنيقا
في هجومه ، ولم نجد شيئا من ذلك عند الثاني .
فابن الأنباري لا يقارن أقوال قطرب أو غيره من
مؤلفي الاضداد بمعارفه هو كما يفعل أبو حاتم بل
بأقوال غيره من اللغويين . ولم يفلط ابن الأنباري
أحدا ، ولا حجب ثقته عنه ، ولا عد أقواله من
الاحتمالات كما فعل أبو حاتم . وبينما كان أبو عبيدة
هدف نقد أبي حاتم الاول ، كان ابن قتيبة الهدف
الاول لنقد ابن الأنباري .

ومن مظاهر قدرة ابن الأنباري في التمهيص
حذفه ما حذف من اضداد ابن السكيت وأبي حاتم .
فقد حذف من الاول ارقام 14 ، 17 ، 87 ، 96 ،

(20) 8 .

(21) 322 .

100 ، 103 ، 105 . وكلها كان أبو حاتم قد حذفها غير رقم 94 الذي أورده فيما شك فيه من أضداد ، ولعل ذلك الذي دعا ابن الأنباري إلى تركه .

وحذف من أبي حاتم ثلاثة أنواع من الأضداد : أولها ما انفرد به ، مثل 246 ، 272 ، 244 ، 266 ، 275 ، 166 ، 109 ، 242 ، 173 ، 236 . وأكثرها مما شك فيه أبو حاتم نفسه ، أو أقيم على أساس خاطيء 109 ، 166 ، 180 ، 236 . ثانيها بعض ما كان على صيغة فعول ، مثل 160 - 163 . ثالثها بعض ما كان على صيغة افتعل وانفعل من الأجوف ، أو افتعل من المضاعف ، مثل 118 ، 175 . وكان حذفه لما حذف من هذه الصيغ اكتفاء بما ذكره هو منها لا لشكه فيها .

وأخيرا وفي « باستيفاء الاحتجاج واستقصاء الشواهد » . فأتى بالأنواع المختلفة من الشواهد : من القرآن ، والحديث ، والشعر ، والأمثال والأقوال . كما فعل سابقوه . وقد مرت علينا أمثلة ذلك . وعني في كثير من الآيات والاحاديث وتفسيرها ، بإيراد سند أقواله . وكانت عنايته هذه أكبر من عناية أبي حاتم . فكان يقول (22) : « أخبرنا أبو محمد جعفر بن أحمد بن عاصم قال : حدثنا هشام بن عمار قال : حدثنا أبو عبد الرحمن عثمان بن عبد الرحمن الجزري قال : حدثنا عبيد الله بن أبي العباس ، عن جوير ، عن الضحاك قال : سألت نافع بن الأزرق عبد الله بن العباس عن قول الله عز وجل : (وأنتم سامدون) فقال : معناه لاهون . فقال نافع : وهل كانت العرب تصرف هذا في الجاهلية ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي عادة حيث تقول :

بعت عاد لقيما

وأبا سعد مريدا

وأبا جلهمة الخبيـ

ر فتى الحي العنودا

فيل : قم فانظر اليهم

ثم دع عنك السمودا

(22) 17 .

(23) 152 .

(24) 57 .

وكان يأتي بالشواهد على الأمور الاستطرادية في كلامه . ويعلق على الشواهد ويشرحها ويطلب أحيانا ، وقد يبين ما في الشواهد الشعرية من روايات . قال مثلا في مادة « ماتت بجمع » (23) : « وقال الشاعر يذكر ماء ورده :

وردناه في مجرى سهيل يمانيا

بصر البرى من بين جمع وخادج

فالجمع : التي في بطنها ولد ، ويقال : بجمع بكسر الجيم . والخادج : التي أنقت ولدها ويقال : قد خدجت الناقة تخدج إذا القت ولدها قبل أوان النتاج وإن كان تام الخلق ، واخذجت تخدج إذا القته ناقص الخلق وإن كان لتام » . وقال في « طرب » (24) : « وقال لبيد في معنى الحزن .

واراني طربا في أثرهم

طرب الواله أو كالمختبل

معناه : واراني حزينا . وبروى : أو كالمختبل ، بالحاء : أي كالذي يقع في حباله الصائد » . والشواهد في الواقع كثيرة عنده جدا ، معنى بها للدرجة كبيرة . فكان يستقصى الاستشهاد على جميع أضداده . ولم يترك منها إلا الأضداد التي نقلها عن غيره بدون أن يكون مستشهدا عليها ، أو في المعاني المشهورة . وكان يصرح بأنه لا يستشهد على المعنى المشهور ، لأنه ليس في حاجة إلى ذلك . فكثيرا ما ترى هذه العبارة التالية عنده :

« لا يحتاج فيه إلى شاهد لشهرته عند الناس » .

أو « لا يحتاج مع شهرته إلى ذكر شواهد له » أو « شهرته تغني عن إقامة الشواهد عليه » وما ماثله .

يتضح من كل ذلك أن قول دائرة المعارف صحيح حين وصفت أضداد ابن الأنباري بأنها أهم كتب الأضداد . فهذا الكتاب قريب من كتاب أبي حاتم ، ولكنه يفوقه في كثرة المواد وحسن العلاج ، وكثرة الشواهد وتنوعها ، ودقة النقد وكثرته ، وفي الاستطرادات التي تحوي كثيرا من الفوائد النحوية ، عن أمة الكوفة .

الى مرتبة التفلسف والتقد ، بدلا من الاقتصار على الجمع .

وتبين هذه النظرة المدققة الناقدة فى منهج المؤلف ، اذ قسم كتابه الى قسمين : الاول للاضداد المرضية عنده ، والثاني للاضداد التى ادخلها السابقون وليست من الاضداد فى حقيقتها . قال فى مقدمته : « وترى من سبقنا الى هذا الكتاب قد ادخل فيه ما ليس منه ، مما نحن ذاكرو صدر منه فى آخره بعد الفراغ من المقصد فيه » .

اما الاضداد المرضية ، او القسم الاول من الكتاب - وهو الاكبر - فرتبه فصولا بحسب حروف المعجم . ووضع فى كل فصل الالفاظ البدوء بالحرف المعقود له الفصل معتبرا الحرف الاصلي فيها . قال فى المقدمة : « وقد رأينا ان نبويه على حروف المعجم ، اذ كانت همة اهل زماننا مقصورة عليه ، وقلوبهم مائلة اليه ، وخير ما تحرى ما نفع . وافضل ما انتدب له ما شفى ونجى » . ولكن ابا الطيب اكتفى بترتيب الفصول ، ولم يحاول ترتيب الالفاظ نفسها فى داخلها .

والقسم الثاني من الكتاب ، الخاص بما ادخله السابقون من اضداد ليست منها فى الحقيقة ورتبه ابوابا . كل باب منها خاص بنوع من هذه الاضداد . وبلغ عددها اربعة ابواب ، اولها لما استوى فيه الفاعل والمفعول من صيغة مفعول ومنفعل من الاجوف ، وثانيها لما استوى فيه الفاعل والمفعول من المدغم العين فى اللام ، وثالثها للمجازي ، ورابعها للمقلوب . والبايان الاولان مرتبان على الحرف الاول ايضا ، اما الاخيران فغير مرتبين ..

وحين يلقي المرء نظرة على هذا الكتاب يجده مفتتحا بمقدمة قصيرة ، تستهل بعد الحمد والصلاة بما تحراه المؤلف فى كتابه من احكام التصنيف واحسان الترصيف ... ثم تعريف الاضداد ويختمها بمنهجه والدعاء .

وتبدأ الاضداد بعنوان « الالف » الذى يشير الى فصل الالف بالطبع .

ولم يسم المؤلف هذه المجموعات « فصولا » ولكني وهبتها هذا الاسم للتيسير .

ويظهر منذ الضد الاول تحري ابي الطيب الجمع والاستقصاء ، اذ يقتبس فيه من جميع السابقين

ولا يعيب الكتاب غير بعض الاختلال ، الذى كان له اربعة مظاهر :

1 - الاضطراب : فالمؤلف ينظم صيغة فاعول لان قطريا نظمها ، ولا ينظم فاعيل ، لان هذا لم ينظمها . وابو حاتم نظم صيغتي افتعل وانفعل من الاجوف والمضاعف ، والمؤلف لا يفعل ذلك (262 ، 263) . ولا يبين انها قاعدة عامة فيما جاء على هذه الصيغة . ويذكر ابن الانباري كثيرا من الالوان على انها اضداد ، ولكنه يفرقها فى اماكن مختلفة ، وحقها التجمع فى موضع واحد . ونتج عن هذا تكرار الكلام عن بعضها . وينطبق الكلام نفسه على الحروف والادوات التى عدها من الاضداد . ويتصل بذلك تفريقه اشباه الاضداد ، وكان واجبا عليه ان يفصل الاضداد ، عن اشباهها ، ويضع كلا منها على حدة .

2 - التكرار : مثل الاخضر (223 ، 245) وطلع (202 ، 257) وزعوم (230 ، 259) كرر الكلام عنها فى الموضعين مع اتفاق السياق على وجه التقريب فى (طالع) واختلافه فى (الاخضر) و (زعوم) . وكرر عن فزع ايضا (129 ، 182) وان اختار فى المرة الاولى صيغة (فزع ومفزع) وفى الثانية (فزع) .

3 - اضداد لا ينبه فى صدرها على ذلك ، ويبتدىء فى علاجها مباشرة ، مثل ناء (94) حتى اضطرب الناشر المصري الاول فيها ، واتى بها فى تضاعيف الكلام عن سابقتها (124) كأنما ليست مادة جديدة .

— * —

كتاب ابي الطيب اللغوي

ظهرت اول محاولة لترتيب الاضداد على يد ابي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي المتوفى عام 351 هـ . فقد اطلع هذا اللغوي على كتب الاضداد السابقة ، وجمعها امامه ، ثم نظر اليها نظرة ناقدة ، خرج منها بكتابه . واذن فقد كان يرمى ابو الطيب الى « احكام تصنيفه ، واحسان ترصيفه ، والزيادة على ما ذكر منه ، والفاء ما خلط من غيره فيه ، لتقوى منة القائلين به ، ويضعف قول النافين له » كما يقول فى مقدمته . وبدلنا هذا على ان حركة التأليف فى الاضداد نضجت ، ووصلت

عليه . قال : « قال ابو زيد : يقال : امر أمم : اذا كان عظيما ، وامر أمم : اذا كان صغيرا . وقال الاصمعي : امر أمم : اي قصد . وقال ابو عبيدة : الامم : القريب . وقال عمرو بن قميئة فى الصغير :

يا ليف نفسي على الشباب ولم
أفقد به اذ فقدته أمما

وقال الاعشى :

لئن قتلتهم عميدا لم يكن أمما
لنقتلن مثله منكم فتمتلل

قالوا : معناه لم يكن صغيرا حقيرا . وقالوا :
بل لم يكن قصدا . وانشد قطرب فى معنى التصد :

أتانى عن بني الاحرا
ر قول لم يكن أمما
ارادوا نحت اثلتنا
وكنا نمنع الخطما

وانشد ابو عبيدة فى معنى القريب :

يا ليت شعري عنك والامر أمم
ما فعل اليوم اويس فى الغنم

قال ابو حاتم : اظنه والامر قصد ، وانشد فى
معنى القريب :

« قومي اباد لو أنهم أمم »

اي لو أنهم قريب . وقال الآخر :

كوفية نازح محلتها
لا أمم دارها ولا صقب

ويروى : « لا سقب » بالسين ايضا : وهو
القريب : ولذلك قالوا : دار فلانة مسقية بدارنا :
اي قريبة منها . وفى حديث الشفعة : « الجار اولى

— او أحق — بسقيه » : اي بما دنا منه وقرب من
داره . ذكر ابا زيد ، والاصمعي ، وابا عبيدة ،
وقطربا ، وابا حاتم .

ونستخلص من دراسة اضداد ابي الطيب
الظواهر التالية :

الانتظام : فقد باقت الاضداد عنده نضجها فى
الدراسة ، وغايتها فى الانتظام الداخلى . فالمعاني
تقدم فى مفتتح المادة ، ثم ترد الشواهد على المعاني .
ثم تعالج المادة كلها .

وتكثر الشواهد وتنوع عنده بصورة لا تخطئها
عين . فيعتمد على الشعر كما رأينا فى المادة
السابقة . ويعتمد على القرآن كما نرى فى قوله (25):
« ومن الاضداد بطانة الثوب : يكون بمعنى البطانة ،
وبمعنى الظهارة . وقال الحسن فى قول الله تبارك
وتعالى : « بطائنهما من استبرق » قال : اراد
ظواهرها . قال قوم : لان كل واحد من الظهارة
والبطانة يكون وجها . تقول العرب : هذا ظهر
السماء ، وهذا بطن السماء ، لئذى نرى منها . وقال
الزبير فى قتلة عثمان رضى الله عنه : « ونجا من
نجا منهم تحت بطون الكواكب » يعنى هربوا فى
البلاذ . وقال آخرون فى هذه الآية : انما اراد الله
تعالى ان بطائن هذه الفرش من استبرق ، وهو
الغليظ الفاخر من الديباج ، فالظواهر أشرف واعلى .
والله اعلم بكتابه » .

ويعتمد على الاحاديث ، مثل قوله فى مادة
باع (26) : « وروى ابن شهاب ، عن سالم بن عبد
الله ، عن ابيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« من باع عبدا وله مال ، فماله الذى باعه الا ان
يشترط المبتاع » اي المشتري . فالمبتاع يكون بمعنى
البائع ، والمبتاع يكون بمعنى المشتري ، والمبتاع يكون
بمعنى المبيع ، والمبتاع يكون بمعنى الشيء المشتري .
وفى حديث رواه ابن سيرين ، عن شريح ، عن ابن
مسعود قال : اذا اختلف البيعان — يعنى البيع
والمشتري — والبيع قائم بعينه ، فالقول ما قال
البائع ، او يترادان البيع » . يعنى بالبيع الشيء
المبيع . وفى حديث آخر : « البائع بالخيار »
يريد البائع والمشتري .. وفى حديث آخر رواه ابن

(25) 67 . وانظر فهارس الكتاب .

(26) 47 . وانظر الفهارس .

مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا اختلف المتبايعان استحلّ البائع ، ثم كان المبتاع بالخيار » .

ويعتمد على اقوال الصحابة، كما رأينا في ظهر، وكما نرى في قوله (27) : « يروى عن حذيفة انه قال حين حضرته الوفاة : بيعوا لي كفنا ، اي اشتروه لي » .

ويعتمد على اقوال الاعراب والاقوال المتبادلة بين الناس في حياتهم اليومية ، كما رأينا في ظهر ، ونرى في قوله ايضا (28) : « ذكر اعرابي جريرا فقال : كان سفسيرا اي حاذقا بالشعر » .

ويعتمد على الامثال ايضا (29) : « وبشرة الانسان : ظاهر بدنه عندهم جميعا ، والجمع بشرات وبشر ... ابو زيد : تقول العرب في مثل : « اراك بشر ما احار مشفر » وبعضهم يقول : اولج مشفر . قال : سمعتها من رجل من بني اسد يقول : ما اكلت استبان على بشرتك وفي لونك » .

وكثيرا ما كان يورد تعليقات على الشواهد توضحها ، كما نرى في قوله : « وقول الشاعر :

امك بيضاء من قضاة في الـ
سبيت الذي يستظل في طنبه

اراد نقية من المعائب ، ولم يرد ان يصف لونها . وكذلك قوله :

امك بيضاء من قضاة قد
تمت لها الوالدات والنضد

النضد ها هنا : الاعمام والاخوال .. » .

ونسب كثيرا من الشواهد الى من انشدها كما رأينا في أمم : ونرى في قوله : « الامين : المؤمن ، والامين المؤمن ، بمعنى الفاعل وبمعنى المفعول . وانشد ابو حاتم للناطقة في معنى المفعول به .

وكننت امينه لو لم تخنه
ولكن لا امانة لليماني »

(27) 45 . وانظر الفهارس .

(28) 45 . وانظر الفهارس .

(29) 74 . وانظر الفهارس .

واغترف ابو الطيب من اضداد سابقيه ، وما اتوا به في سبيل تفسيرها وتعليلها وتقدمها والاستشهاد عليها . وكان حريصا كل الحرص على نسبة كل قول الى قائله ، حتى في الاحوال التي لم يلتزم فيها عبارة واحد منهم ، وجمع بين عباراتهم ، اشار الى ذلك . فكان اكثر من جمع بين عبارته قطرب وابو حاتم . وجمع ايضا بين التوزي ، وقطرب وابي عمرو ، وقطرب وابي عبيدة . وجمع احيانا بين اقوال ثلاثة منهم معا ، مثل قطرب وابي حاتم والتوزي ، وابي عبيدة وابي زيد والاصمعي .

وكانت الثمرة الطبيعية لهذا ان كثرت الاضداد عنده كثرة هائلة تعادل كثرتها عند ابن الانباري ، وان تمثلت في كتابه جميع الظواهر التي وجدت في كتبهم ، في الاضداد والشواهد والتفسير . بل ان ما جاءوا به ولم يرض عنه لم يخل كتابه منه ، وجمعه في آخر الكتاب .

ولكن ذلك لم يبلغ شخصية ابي الطيب . فما اكثر تعليقاته الشخصية التي يورد بعضها عن لغويين آخرين ، ويأتي ببعضها من معارفه العامة ، ويقصد فيها الى زيادة التوضيح ، والاعتراض ، والنقد ، والترجيح ، وما الى ذلك من أمور .

والحق انه يبادل كتاب ابن الانباري قدرا واهمية . ويفوقه في اتجاهه الادبي ، وكثرة شواهد وتنوعها ، وكثرة الاحاديث عنده ، وفوائده التي اضافها ، واصراره على نسبة كل قول الى صاحبه ، وما ادخله على الاضداد من ترتيب . اما ابن الانباري فيفوقه في القرآنيات ، والعلل اللغوية والصرفية ، والعبارات المؤلفة .

— * —

كتاب ابن الدهان

اعلن ابن الدهان في مقدمة اضداده انه نظر في كتب السابقين عليه ، فوجد فيها اختلالا : اذ يذكرون ما يجب عليهم حذفه ، ويتركون ما يجب

عليهم ذكره ، ووجدها مشحونة بالشواهد . فاستهدف أن يخرج مختصرا حاويا للأضداد مجردة عن كل شيء . فهدفه الجمع والاختصار . ثم رد على من أنكر الأضداد . واتبع ابن الدهان ما فعله أبو الطيب ، ترتيب أضداده ، فلم يراع فيها غير الحرف الاصلي الاول وأهمل بقية الحروف .

ولا يزيد الكتاب عن قائمة تورد اللفظ الضد يليه معناه . وعلق من وقت لآخر على بعض الأضداد بعبارة « وفيه نظر » دلالة على شكه فيه . وطبيعي أن الكتاب حوى الأنواع المتعددة من الأضداد ، بسبب اعتماد المؤلف على الكتب السابقة ، التي أشار منها إلى كتب الاصمعي والفراء وقطرب وابن السكيت وتعلب والسجستاني وابن الأنباري .

وأمثل لنهج الكتاب بما يلي :
« الأمين : المؤمن والمؤمن .

المائم : النساء يجتمعن في الحزن ، وفي الفرح ، وفيه نظر .

اذ : للماضي والمستقبل ، وفيه نظر .
إذا : للماضي والمستقبل ، وفيه نظر .
الأمم والأمم : الحقير والعظيم .
الاشرة : الاشرة والماشورة » .

— * —

كتاب الصفاني

في أوائل القرن السابع ، أخرج الصفاني كتابا في الأضداد ، وصل إلينا بتحقيق الاستاذ الدكتور هفنر Dr August Haffner ويفتتح الكتاب بالعبارة التي يبدو أن الصفاني كان يفتتح بها كتبه جميعا مع البسطة والحمد ، والتي تدل على اعتكافه في المسجد الحرام ..

وصرح المؤلف في مقدمته بأنه قرأ جميع كتب الأضداد ، وذكر ما فيها ، مع تحري الاختصار والترتيب على حروف الالفباء ..

ولم أثر قبل الصفاني على كتاب في الأضداد مرتب على الحروف في جميع الفاظه ، فلعله أول من فعل ذلك . وكان ينظر في ترتيبه هذا إلى أوائل الحروف ، فحرفها الثانية ، فالثالثة فالرابعة أي الترتيب الحديث المعروف لنا ، مع تقديم الواو على

الهاء . وكان لا يعتمد في ترتيب الالفاظ الا على حروفها الاصلية . أما الزائدة فلا اعتبار لها عنده . ويبدو من عباراته الاخيرة أنه تحرى الجمع وتدوين ما وضعه السابقون في كتبهم بدون تمحيص أو نقد ، فهو لا يقبل العرضي وحده ، ويحذف المشكوك فيه ، بل يقلبهما معا . وقد أشار إلى ذلك مرة ثانية في خاتمة كتابه القصيرة التي قال فيها : « آخر كتاب الأضداد ، ولله الحمد والمنة . وفيه كلمات ليست هي عندي من الأضداد ، ولكني قفوت فيه آثار من سبقني إلى جمعها مثل ابن الأنباري وغيره ، حذار أن يقال : أهمل شيئا مما أثبتوه ، فليهد العذر العائر عليها ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه كثيرا » .

وحين ندرس الكتاب لنرى مقدار وفائه بوعوده نراه في الخطوة الاولى جمع 337 ضدا ، ولكنه لم يذكر كل ما في أضداد قطرب وابن السكيت وإبني حاتم وابن الأنباري . فقد حذف من الاولى حوالي 67 ضدا ، ومن الثانية حوالي 10 أضداد ، ومن الثالثة حوالي 55 ومن الرابعة حوالي 40 ضدا . وأتى في مقابلها بقريب من 75 ضدا ، ليست في هذه الكتب الثلاثة . ولا يقوم هذا الحذف على أساس الشك والنقد ، إذ لم يحاول المؤلف ذلك بتصريحه . أضف إلى ذلك أن كثيرا مما حذفه رواه غير واحد من مؤلفي الأضداد (20 ، 225 ، 217 ، 77 ، 226 ، 193 ، 205 ، 60 ، 219 ، 127 ، 210 ، 185 ، 214 ، 85 ، 218 ، 213 ، 24) . ولكن تجب الإشارة إلى أن كثيرا مما حذفه خاطيء (231 ، 180 ، 166 ، 109 ، 255 ، 286) أو مشكوك فيه (259 ، 246 ، 272 ، 273 ، 244 ، 270 ، 266 ، 118 ، 275 ، 252 ، 265 ، 243 ، 242 ، 257 ، 271) أو انفرد به قائلوه (16 ، 100 ، 105 ، 96 ، 17) وأكثر ما حذفه من أضداد ابن الأنباري ، أو ينطوي تحت صيغ فعول (60 ، 158 ، 159 ، 161 ، 162 ، 163 ، 164 ، 165) أو فاعيل 203 ، 204 أو افتعل (175) .

أما المنهج الذي سار عليه فغاية في البساطة : إيراد اللفظ ومعنييه المتضادين . ولا عناية بما بعد ذلك . فلا ذكر للغويين الذين يأخذ عنهم الا قليلا (490 ، 688 ، 706) ولا ذكر لشواهد ، ولا لمشتقات ولا لمعان أخرى للأضداد ، ولا لفوائد وزيادات وأحكام وقواعد . فالكتاب يمكن تسميته « متن الأضداد » . وهناك بعض الأمثلة :

وسار المؤلف أيضا على نهج القاموس في العناية بالتفسير وحده ، وحذف الشواهد . فكان يورد اللفظ ثم معنييه المتضادين . وكان في غالب الاحيان يحافظ على نص القاموس أيضا . وهذه بعض الامثلة من باب الهمزة منه ، تؤكد ما سبق من اقوال : « ثانياً الابل : عطشها وارواها . وثالثات : عطشت ورويت . جفا الباب : اغلقه وفتحته كأجفاه . خجيء : استحيا وتكلم بالفحش . وادأ الشيء : حركه وسكنه . داراته : دافعته ولاينته . رقا بينهم : افسد واصلح . القراء : الحيز والطهر . ناء بالحمل : نهض مثقلا ، واثقل فسقط . وراء : خلف وقدام » .

— * —

كتاب محمد المدني

تقتني المكتبة السليمانية بالاستانة رسالة اخرى في الاضداد للشيخ محمد المدني ، تماثل الرسالة السابقة او تكاد ، تحت رقم 1041 . وليس للرسالة مقدمة تبين هدفها ولا منهجها . ولكن لها خاتمة اخذ جزءا منها من الزهر للسيوطي ، ومن اضداد ابن الانباري . وصرح فيها : « وقد تتبعت القاموس وغيره من كتب اللغة ، واستخرجت ما صادفته ، ولم ادع الاحاطة » .

وعند مقارنة مادة هذه الرسالة بمادة الرسالة السابقة لا نجد بينهما فرقا يذكر ، لاعتمادهما الرئيسي على القاموس المحيط في الاضداد ، وترتيبها وتفسيرها . ومثال ذلك قوله :

ثانياً الابل : ارواها وعطشها ضد . وثالثات الابل عطشت ورويت ضد . جفا الباب : اغلقه كأجفاه وفتحته ضد . داراته : داريته ودافعته ولاينته ضد . رقا بينهم رقا : افسد واصلح ضد . القراء ، وبضم : الحيز والطهر ضد » .

— * —

دورق الانداد للبياري وشروحه

وفي اوائل العصر الحديث شارك الشعر في حركة الاضداد ، فالتفت فيها الرسائل المنظومة ووصل اليها من هذه الحركة رسالتان . اولاهما المسماة « دورق الانداد في نظم أسماء الاضداد »

« الابض : السكون والحركة .
الابل : الرطب واليبس .
الماتم : النساء المجتمعات على الحزن وعلى الفرح .
الارة : الحفرة التي تحفر للنار ، والنار نفسها ايضا .
الأزر : القوة والضعف .
أسد : اذا جزع وجبن ، واذا جسر كالأسد .
أفسد : اذا اسرع واذا ابطأ .. الى آخر الكتاب » .

ولكننا نأخذ عليه اضطراب ترتيب بعض الالفاظ عنده . فقد قدم « أون » على « أور » و « تصدق » على « صامت » و « قانس - قنيص - قانع فتوع » على « قموء » والعكس اصح . كما قدم « ناء » في اول حروف الواو اذ ذكرها مع تاء التكلم « نوت » والاصح وضعها في النون مع الواو .

— * —

كتاب عبد الله بن محمد

تقتني دار الكتب المصرية رسالة صغيرة جدا في الاضداد عنوانها : « ذكر بعض الاضداد التي ذكرت في القاموس » جمع من يسمى « السيد عبد الله بن محمد ... » . تحت رقم 241 مجاميع وهي ورقات ، ناقصة من آخرها . اذ وقفت في اثناء مادة « القتين » .

وواضح من عنوانها ان المؤلف جمع ما فيها من اضداد من القاموس المحيط للفيروزابادي وحده وقد سار المؤلف على ترتيب القاموس ، اذ يبدو انه في اثناء اطلاعه كان يدون كل لفظ من الاضداد يعثر عليه . ولم يختار المؤلف الاضداد التي نبه عليها الفيروزابادي وحدها ، بل اختار ايضا الالفاظ التي روى لها معنيين متضادين دون تنبيه على انها من الاضداد . ولم يغير المؤلف في ترتيب الالفاظ التي اختارها من القاموس ، فبقيت على ترتيبها فيه ، اي على الحرف الاصلي الاخير اولاً ، فالحرف الاصلي الاول ثانياً ، فحروف الوسط الاصول مرتبة ..

ويريد بالبيت الثاني - كما نص شارحه - :
 « ان كثرت الاضداد بأن كان اللفظ مشتركا بين
 أربعة معان مثلا ، كل معنيين منها متضادان ، جئت من
 الأربعة مثلا . إما يفنى عن الضد من كل منها وذلك
 اني اذكر معنيين فقط : كل منهما محذوف الضد
 لينفهم المحذوف بالمذكور » .
 وسار في ضبط الفاظه على هدى القاموس المحيط ،
 قال :

ينبيك قاموسها بالاصطلاح لها
 اذ منه مرجانها والواو انتظما
 ما كان مهملًا او مفتوحًا اوله
 اطلقته وضبطت الغير معتصما
 والوزن فيما له قد حركوا اوله
 قد سكنوا مؤذن بالضبط للفهما
 فان ضرورة شعر قد دعت لسوى
 هذا ، اشرت اليه خوف ان تهما

واتبع ترتيب الفيروزابادي وتقسيمه لقاموسه ،
 فالكتاب مقسم الى ابواب بحسب الحرف الاخير
 للكلمات التى فيها . وترتب الكلمات فى داخل هذه
 الابواب بحسب حروفها الاولى فالوسطى . ولكن
 الشعر ارغمه احيانا على الاخلال بهذا الترتيب فى
 داخل الابواب لا بين الابواب . اعني الاخلال فى
 ترتيب الحروف الاولى ، او الحروف الوسطى ، اما
 الحروف الاخيرة فلا .

وهالك قدرا مما قاله الناظم فى « باب الهمزة »
 لتبرز معالم منهجه :

بفرة الشهر فسر البراء كذا
 بالانس فسر بساء واكسرن لهما
 ثم البلاء لمنحة اتى ولمح
 سنة ، كما جاء فى القرآن متفهما
 ثنائات ابلى : اي ارويتهما ، وكذا
 ثنائات هي : اي اوضحت ذوات ظما
 والاجتداء بسؤال ففسروا وعطا
 كذا الجداء ، قاله القالي عن العلما

للسيد عبد الهادي نجا الابياري المتوفى عام 1305 هـ .
 وقد ألفه قريبا من عام 1297 ، اذ تمت النسخة
 الثانية منه على يد الناظم فى ضحوة يوم الثلاثاء
 تاسع شوال من ذلك العام ، كما تصرح نسخة دار
 الكتب المصرية ، التى تحت رقم 844 لفة .

والسبب الذي دفع الابياري الى تأليف نظمه
 اعانة الادباء الذين يرمون الى التائق بالجناس
 والتورية والمحسنات . واما المراجع التى اعتمد عليها
 فالقاموس المحيط للفيروزابادي وشراحه ، قال
 الناظم فى مقدمة قصيدته :

وقد تيسر لي فى جمعها جمل
 تجمل المجتني من روضها كلما
 كل الذى ذكر القاموس جئت به
 الا الذى بصري قد زاغ منه وما
 وزدت اشياء من شراحه وسوا
 ها ، هكذا منه ، لكن بالذي فهما

حتى ظننت بأن لم يبق قط من ال
 اضداد شيء ، ولكن يا اخي ربما

وشرح لنا الناظم منهجه فى المقدمة ايضا ،
 فعرفنا بأنه لم يلتزم الالفاظ الواضح تضاد معانيها
 وحدها ، بل ذكر ما أورده غيره ولو كان فيه تجوز
 وتوسع ، وان تقدمه فى احيان اخرى ، قال :

وربما كان فى بعض الذى ذكروا
 تسامح بعموم او بما لزمنا
 فاكتفى اثرهم طورا ، وآونة
 ابدي الذى يشرأى فيه للفهما

ولم يلتزم ايراد المعنيين المتضادين فى كل
 لفظ من الاضداد ، بل حذف احيانا المعاني المعروفة
 المشهورة واكتفى بايراد المعاني غير المعروفة ، قال :

طورا اجيء بكل المعنيين وطو
 را بالذى كان مجهولا ومنبهما
 فان تعددت الاضداد جئت بما
 يفنى عن الضد من كل ، لينفهما

واجفئ الباب : اغلقه ، وداده
معناه حرك ، والتسكين قد فهما

دارات خصمي - ميموزا ، كذاك ييا -
دافتمه ، وكذا لايتنه كرمنا

ما ستراه ، ان شاء الله ، من الالماع ، بما يسحر
الاسماع ، من تحقيقات شريفة ، وتدقيقات ظريفة . .
تراها مرة شرعية ، وكرة أدبية ، وطورا يمانية ،
وحينا معدية . . . يرتاح اليها الفقيه ومن حذا
حذوه ، واللفوي ومن نحا نحوه . . . » .

وداب الرجل في هذا الشرح على معالجة نص
الناظم نحويا وعروضا وتفسيره تفسيراً كاملاً ،
وتناول كل ما عن له من مشاكل في النص . فهو يقوم
على طريقة التون والشروح والحواشي التي كانت
تسود العهود الأخيرة من تاريخنا . وصدر كل باب
بكلمة عن عنوانه .

منبه الرقاد

تملك دار الكتب رسالة أخرى في نظم الاضداد ،
تحت رقم 329 لفة ، باسم « منبه الرقاد في ذكر
جملة من الاضداد » لا يعرف مؤلفها . وقد تم
نسخها يوم الثلاثاء الموافق لآخر يوم من شهر رمضان
سنة اربع وثلاث مئة والف ، كما في آخرها .

وتختلف هذه القصيدة عن السابقة في عدة
مظاهر ، اولها ان هذه من المزدوج الذي يقفي
شطراه وحدهما ، وتختلف القافية في الايات بعد
ذلك . اما السابقة فكانت من بحر البسيط ،
والتمت في رويها اليم المشبعة الفتحة . واتفق
الانثان في الابتداء بمقدمة شرح كل منهما فيها
منهجه . ولكن المنهجين لا يتفقان تماما . فقد صرح
ناظم هذه القصيدة بعد الحمد والصلاة بأن قصده
بها علمي هو تنبيه الغافلين والجاهلین - ومن ثم
اسمها - على حين كان مقصد الابياري ادبيا علميا
كما رأينا . يقول ناظمنا :

وبعد فالقصد بهذا النظم

تنبيه كل غافل وامسي

سميته منبه الرقاد

في ذكر جملة من الاضداد

وأراد ناظمنا - كما أراد الابياري - الجمع
ورجع في سبيله الى القاموس والصحاح وكتب ابن
ابن جني على حين رجع الابياري الى القاموس
وشروحه . يقول الناظم في المقدمة :

وقام المؤلف نفسه بشرح قصيدته في كتاب
سماه « الرونق على الدورق » اكثر فيه وأطال
واستطرد . ولكنه - فيما يبدو - لم يتمه ، وانما
اعطانا وصفه احمد بن احمد بن اسماعيل الحلواني ،
في مقدمة شرحه للدورق . قال : « وكان - حفظه
الله - قد ابتدا شرحه الموسوم بالرونق على الدورق ،
لكنه طال وسار بل سال ، في رياض الادب الغوال ،
عن يمين وشمال . فانه التزم فيه تحف المناسبات
الظريفة ، طرق الاستطرادات الشريفة ، وحقق
ودقق ، ونمق وائق ، وحرر وحبر ، ونضد ونضر ،
ونثر الدر والجوهر ، فاكثر . . . فقد رأيت منه اربعة
كراريس ، يبذل الاديب في مثلها النفس والنفيس .
ولكنه زهر في الاكمام ، وطفل لم يبلغ حد الفطام . . »

ورجا المؤلف من الحلواني ان يؤلف شرحا
مختصرا على قصيدته . فحقق الرجاء بكتابه الذي
تحتفظ دار الكتب المصرية بمسودته تحت رقم 844
لفة ، بعنوان « الكأس المروق على الدورق » ، وقد
فرغ منها « يوم السبت الخامس والعشرين من صفر
سنة اثنتين وثلاث مئة والف من الهجرة الشريفة » .

وحدد الحلواني خطوات منهجه بقوله في
مقدمته : « فسرعت في الشرح وما اطلبه ،
فالمقصود الدورق وهو سبيله . الا اني ان ظفرت
بشيء من الاضداد ، في باب من الابواب ، فاني
اذكره تنميما للمراد ، في خاتمة ذلك الباب . ولا
التزم في اخذه من نحو القاموس او تاجه : ان تكون
نصا في الضدية ، سراج الدورق في منهاجه من
اعتبار العبارة الاشارية . ولا التزم ايضا الاستقصا ،
فاني ان رمته استعصى ، كيف واللفة بميدة
الساحل ، مديدة المراحل ؟ . . . ولكن ما جاء عفوا
اخذته صفوا . ثم لا تراني معاذ الله اعمد الى مقام
مشهور ، مجته اسماع الجمهور ، فأسود به وجه
السطور ، فذلك مما ينفر الطباع ، ويكره الاسماع ،
ويكون عارا لا يحويه اعتذار ولا استشفاع ، اللهم الا
ان كان من الحقوق الواجبة ، او سيق لمناسبة ، او
نكتة مناسبة ، فالشيء بالشيء ، والشمس بالقيء ،
فهذا لا اتحاماه ، بل احمي حماه ، واتقي اذاه ، الى

احسب ما وجدت منها مع قصور
وغيبتي عن فنها مع الحضور

واحسب هنا بمعنى اعد ، ويقول في الخاتمة :

معتمدا ضبطي على القاموس

لاني في النفن كالبايوس (30)

وفي الصحاح جاعلا مجني

وربما اخذت في ابن جني

وجعل من خطته ذكرا للمشتقات المرتبطة
بالاضداد وخاصة المصادر والصفات ، على عكس
الايباري يقول :

وربما اومي للاشتقاق

والقيد ان كان وللإطلاق

وللمصادر فاضبط الكلام

والوصف مع بعض اللغات المنبهم

وخصص الجزء الاخير من قصيدته للالفاظ
المتائلة - اي الكلمات المتائلة المعنى مع تغير بعض
حروفها بالابدال - والمقلوبة ، يقول :

وللمتائلين والمقلوب

عونك يا مقلب القلوب

ولجا في تقسيم قصيدته الى التقسيم الذي
ارتضاه صاحب القاموس ، والايباري . فالقصيدة
مقسمة الى ابواب بحسب الحرف الاخير من الاضداد
التي يحتوي عليها كل باب ، والالفاظ ترتب في
داخل الابواب بحسب حروفها الاولى ، واواسطها
ولكن الترتيب كثيرا ما افلت منه في داخل الابواب.

وختم القصيدة بخاتمة اشارت الى انتهاء ما
يريد نظمه ، وأشياء من منهجه ، والدعاء الى الله ان
يفقر ذنوبه ، والصلاة على الرسول وآله وصحبه
والتابعين .

وهذا باب الهزرة منه ، يمثل تناوله ونظمه :

(30) ولد الناقة ، والصبي الرضيع .

نأنا ذا ابله : ارواهما
كذا اذا اغرى بها صداها

وثائيات هي : اذا ما رويت

يوم ورودها ، كذا ان عطشت

وجفا الباب : اذا ما اغلقه

كذا اذا فتحه : فحقيقه

دأرات ذا : دفعت له شره

كذا اذا لاينته لعسرته

رقا : افسد واصلح ، خذ

والصدر الرقو ، والرقا انيد

والقرء ، بالفتح وبالضم اتي

يكون للحيض وطهر ثبنا

وناء زيد : خف او قد ثقلا

فمعجز الحال به بين الملا

ثم السورا بهمز لا اعتلال

يكون خلف وامام تالي

عكس الذي توهم الامام

الجوهري المعالم الهمام

ويتضح من هذه الابيات ان الناظم خالف الايباري
في عدة مظاهر : اهمها التزامه ذكر المعنيين المتضادين
في كل نطق ، عدم التزام قافية واحدة في جميع
الاييات ، ثالثا الاشارة الى المشتقات مثل مصدر
الرقو ، رابعها الضبط واللفات في القرء ، خامسها
نقد الجوهري في « واء » اذ جعلها مع المعتل واصلها
الهمز ، وقد اخذ هذا النقد من الفيروزابادي ،
سادسها انه يترك بعض الاضداد التي ذكرها الايباري ،
اي عناية الاخير باستقصاء الاضداد اشد من عناية
صاحب « المنبه » . ومن اهم اوجه الخلاف ايضا
شعور المرء - بان قصيدة صاحب « المنبه » اشد
سلاسة ، واعظم وضوحا ، واقل تكلفا من قصيدة
الايباري .

وهناك اوجه خلاف اخرى لم تظهر في الابيات
السابقة ولكنها ظاهرة في القصيدة كلها ، اهمها
اهتمام صاحب « المنبه » بذكر المعاني التي لا تدخل
في المعنيين المتضادين للاضداد مثل قوله :

الأزر للضعف والقوة قل

وللاحاطة وللظهر تقسل

فمعاني الشطر الثاني لا تدخل فى الاضداد ، وقوله :

وبتر الرجل : اعطى ومنع

كذا اذا طلى الضحى حين طلع

فصلاة الضحى ليست من المعنيين المتضادين ، وكذلك قوله :

والشع - بالكسر - : قبال النعل

ولقليل المال ثم الجسل

فشع النعل ليس من الاضداد . وامثال ذلك كثيرة ، ولم يعن الابياري بها .

وبعب هذه القصيدة امران : قلة الاضداد فيها عما فى الدورق ، وكثرة الاضطراب فى الترتيب ، كما يظهر فى باب الباء ، والحاء والدال ، والراء ، والسين ، والضاد ، والعين وغيرها .

(الفصل الرابع)

فصول عن الاضداد

لم يقصر لغويو العرب جهودهم على تأليف كتب مستقلة للاضداد ، بل شارك بعضهم فى هذه الحركة ، بتخصيص ابواب او فصول للاضداد من كتبهم الجامعة . ومن الطبيعي اننا لا نستطيع ان نغفل او نحط من هذه الجهود ، وان كانت بحكم وضعها اقل شأنًا من الكتب المستقلة .

وقد وصلت الينا خمس مجموعات تحتوي على ابواب مخصصة للاضداد ، وهي بترتيب ظهورها : الفريب المصنف لابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى بين عامي 223 - 230 هـ ، وادب الكاتب لابن قتيبة 270 هـ ، وسر العربية لعبد الملك بن محمد الثعالبي المتوفى عام 429 هـ ، والمخصص لابن سيده المتوفى عام 458 هـ ، والمزهر للسيوطي المتوفى عام 911 هـ .

(31) البغية 376 .

(40) 323 - 4

(41) 313 .

الفريب المصنف

اما ابو عبيد فاعتمد فى « باب الاضداد » من غريبه على اساتذته « ابي زيد ، وابي عبيدة ، والاصمعي ، وابي محمد اليزيدي ، والكسائي » (31) والثلاثة الاول خاصة . واورد فى هذا الباب 41 ضداً ، كلها موجود فى الكتب المستقلة بالاضداد . ولما كان اعتماده على اساتذته ، كان يروي عنهم مباشرة ، فصدر الباب بعبارة : « سمعت ابا زيد يقول » . وانواع الاضداد عنده قليلة ، تتألف من الاضداد الحقيقية ، واضداد التغوّل ، واللغات ، والقلب ، وصيغة افعّل .

وسار المؤلف على خطة ايراد اللفظ ، ثم معنييه ، ثم شواهد ان وجدت ، ونسبة كل منها الى قائله . وهو فى اغلب المواد قريب من اضداد ابن السكيت متفق معها . قال مثلاً : « قال ابو زيد : طلعت على القوم اطلع طلوعاً : اذا غبت عنهم حتى لا يروك ، وطلعت عليهم : اذا اقبلت اليهم حتى يروك . وقال : لمقت الشيء المقه لمقاً : اذا كتبته فى لغة بني عقيل ، وسائر قيس يقاؤون : لمقته : محوته » . وقال ابن السكيت (40) : قال ابو زيد : يقال : طلعت على القوم اطع طلوعاً : اذا غبت عنهم حتى لا يروك ، وطلعت عليهم : اذا اقبلت اليهم حتى يروك . ويقال : لمقت الشيء المقه لمقاً : اذا كتبته فى لغة عقيل ، وسائر العرب يقولون : لمقته : محوته » .

ولكنه كان يميل الى الاختصار ، فاختصر عبارة ابن السكيت ، كما نرى فى قوله : « فرع الرجل فى الجبل : صعد ، وفرع : انحدر ، وقال معن بن اوس :

فساروا ، فاما جل حي ففرعوا

جميعاً ، واما حي دعد فصعدوا

ويروى : فافرعوا ، وافرغ فى الحاليين جميعاً . وقال ابن السكيت (41) : « فرع الرجل : اصعد وفرع : انحدر ، قال معن بن اوس :

فساروا : فاما جل حيي ففرعوا

جميعاً ، واما حي دعد فصعدوا

فاعد لما تعلق فمالك بالذي
لا تستطيع من الامور يدان

قوله : يشعب امره : يعني يفرقه ويشتته .
وقوله : لما تعلق ، يقول : تكلف من الامور ما تقهره
وتطيقه . وشرح ابن السكيت اوفى من ذلك ، اذ
قال (45) : « قوله : يشعب امره : يفرقه . يقال :
شعبت اهوؤهم : اي تفرقت . وقوله : لما تعلق : يعني
تكلف من الامر ما تطيقه وتقهره ، ويقال : هو عال
لذلك الامر : اي ضابط له قاهر » .

وتأتي مزايا هذا الباب من الاضداد من انه
يصحح بعض نقول ابن السكيت ، كما فعل في (لحق)
اذ نسب معنى (محا) الى قيس . موافقا بذلك ابا
حاتم (46) وابن الانباري (47) ، ومخالفًا قول
ابن السكيت (48) .

ويمتاز ايضا بأنه ينسب كثيرا من الاضداد
التي اهملها ابن السكيت وأبو حاتم الى اصحابها
الذين قالوها ، مثل افاد ، واودع . والشيح وصارخ
وهاجد وصرير وبثر وظن ووراء وغيرها .

ومن الطبيعي ان نضع في مزاياه زياداته في
تضاعيف الشرح ، والخطبة التي اتبعها في علاج
الاضداد ، وجعلته لا يعني الا بما اتصل بها ، ويحذف
ما عدا ذلك ، ويقتل الشواهد ، حتى صار الباب
في مرحلة متوسطة بين كتب ابن السكيت وابي
حاتم وابن الانباري الفاصلة بالشواهد والمعلومات ،
وبين كتاب الصغاني الذي حذف الشواهد جميعها .

ولكننا نأخذ عليه تكرار مادة « وراء » وتبعها لها
مادة « دون » مرتين : اولاهما في منتصف الباب
عن ابي عبيدة ، وثانيتهما في آخره تقريبا عن غير
ابي عبيدة . ولن نعتذر عنه باختلاف الراوي لانه
كان يستطيع التنبيه الى ذلك في الموضع الاول ،
ويستغنى عن التكرار . . والمأخذ الثاني عليه ايراده
بعض الاضداد التي نقدها المؤلفون ، مثل خنذيد

ويروى : فاصعدا . ويروى : فأفرعوا . وقد
أفرع الرجل : اذا انحدر من الجبل ، وأفرع : اذا
صعد ، قال الشماخ :

فان كرهت هجائي فاجتنب سخطي

لا يدركنك افراعي وتصعيدي

وقال رجل من العبلات من بني امية :

اني امرؤ من يمان حين تنسبني
وفي امية افراعي وتصعيدي

الرواية : وتصويبي . فحذف ما اورده في
« أفرع » حتى التبس قوله بعض الشيء ، وحذف
ما بعدها من شواهد . وكثيرا ما كان يحذفها
اختصارا .

وبرغم هذا الاختصار ، كان يزيد احيانا على ما
في اضداد ابن السكيت ، مثل قوله : « قال ابو
زيد : السدفة في لغة بني تميم : الظلمة ، والسدفة ،
في لغة قيس : الضوء . وكذلك قال ابو محمد
البيزدي ، وانشد للعجاج :

« واقطع الليل اذا ما اسدفا »

اي اظلم . وبعضهم يجعل السدفة اختلاط
الضوء والظلمة مثل ما بين طلوع الفجر الى الاسفار .
ولم يرو ابن السكيت (42) ولا ابو حاتم (43) ولا ابن
الانباري (44) العبارة الاخيرة .

ولم يمنعه الاختصار من شرح شواهد ،
والإلتفات الى ما فيها من رواية . وكان يتفق مع ابن
السكيت في اكثر الشرح مع اختصاره . مثال ذلك
في قوله : « قال الاصمعي : شعبت الشيء اصلحته ،
وشعبته : شققته . قال : والشعوب منه ، وهي
النية لانها تفرق . وانشدنا لعلي بن غدير الغنوي :

واذا رايت المرء يشعب امره
شعب العما ويلج في العصيان

(42) 316 ، 43 .

(43) 1144 .

(44) 645 .

(45) 277 .

(46) 1372 .

(47) 133 .

(48) 324 ، 50 .

وأسر ، التى أوردتهما أبو عبيدة ، وتقدهما أبو حاتم ،
ونقل النقد أيضا ابن الأنباري .

— * —

ادب الكتاب

وأفرد ابن قتيبة بابا صغيرا من ادب الكاتب ،
« للمتضادين باسم واحد » (49) أورد فيه 27 ضدا .
ونهج على أن يقدم اللفظ المراد ثم معنييه المتضادين .
واكتفى بذلك كثيرا ، وفى مرات أخرى أورد
شاهدا من الشعر ، وكثيرا ما اكتفى بشرط واحد من
الشاهد . ونسب فى أحد الاضداد قولاً لأبي عبيدة ،
وأخر للفراء . وأورد فى أحد الاضداد أيضا قولاً
يبطل التضاد أخذه من أبي عبيد وأن لم ينبه الى
ذلك ..

وامثل له بقوله : « الجون : الاسود ، وهو
الابيض ، قال الشاعر :
بيادر الجونة أن تفيبا

يعني الشمس .

والصرير الليل ، والصرير الصبح .

والسدفة الظلمة ، والسدفة الضوء ، وبعضهم
يجمل السدفة اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين
طلوع الفجر الى الاسفار .

والجلل الشيء الكبير ، والجلل الشيء
الصغير .

سر العربية

وأفرد الثعالبي فى كتابه « سر العربية فى
مجازي كلام العرب وسننها والاستشهاد بالقرآن
على أكثرها » فصلا خاصا بالاضداد ، سماه « فصل
فى تسمية المتضادين باسم واحد (50) » .

وهذا الفصل قصير جدا كبقية فصول الكتاب ،
يحتوي على ثمانية اضداد فحسب . نهج المؤلف فى
معالجتها ، على أن يذكر الكلمة ، ثم معنييها . قال
مثلا : « الجون للابيض والاسود ، والقروء للاطهار
والحيض ، والصرير الليل والصبح .. » واستشهد

(49) 177 - 181 .

(50) 5652 .

(51) 492 .

على ضدين فقط ، أحدهما بيت من الشعر ، والثاني
آية من القرآن : قال الخيلولة للشك واليقين ،
قال أبو ذؤيب :

فبقيت بعدهم بعيش ناصب
وأخال أني لاحق مستتبـع

أي واثقن . والنسب المثل والضد
وفى القرآن : (وتجعلون لله اندادا) على
المعنيين . وواضح من هذه الخطة أن المؤلف لا يريد
إلا أن يأتي ببعض الأمثلة على الاضداد فى اللفظ ، إذ
هي فى رأيه « من سنن العرب الشهيرة » كما قال
فى أول فصل الاضداد . فلاضداد عنده ليست
مسألة أو مشكلة علمية تبحث ، بل مسألة فرغ
البحث منها ، فهو يشير إليها فقط ، ويمثل لها ..

ونستطيع أن ندخل من كتابه ثلاثة فصول
أخرى ، لأن مؤلفي العرب القدامى اعتبروا أمثالها
من الاضداد ، وهي « فصل فى المفعول يأتي بلفظ
الفاعل و » « فصل فى الفاعل يأتي بلفظ المفعول (51) .
و « فصل فى المدح يراد به الذم فيجرب مجرى التهكم
والهزل » . ويحتوى الفصل الأول على سبع كلمات .
ودرج فيه على ذكر الكلمة فى عبارة ، ثم يفسرها باسم
المفعول . قال : « تقول العرب : سر كاتم : أي
مكتوم . ومكان عامر : أي معمور » . ولم يورد
الالفاظ الباقية فى عبارات ، بل فى آيات قرآنية ،
والاخيرة منها فى بيت من الشعر ، وفسرها كالكلمات
الأولى . قال : « وفى القرآن « لا عاصم اليوم من أمر
الله » أي لا معصوم . وقال تعالى : (خلق من ماء
دافق) أي مدفوق . وقال : (عيشة راضية) أي
مرضية . وقال الله سبحانه : (حرما آمنا) أي
مأمونا . وقال جرير :

ان البلية من تمل كلامه
فانفع فؤادك من حديث الوامق

أي من حديث الموموق .

ويحتوي الفصل الثانى على لفظين ، ذكرهما
المؤلف فى آيتين ، وفسرهما باسم الفاعل قال :
قال تعالى : (انه كان وعده مأثيا) أي آتيا . وكما
قال جل جلاله : (حجابا مستورا) أي ساترا .

ويحتوي الفصل الثالث على أربع عبارات، تجري مجرى الاستهزاء في كتب الاضداد ، والاخيرتان منها آيتان قرآنيان . ولم يعلق المؤلف على الأقوال أو الآيات ، ولم يفسرهما لوضوح مقصده منها في عنوان الفصل . قال : « العرب تفعل ذلك (يريد الاستهزاء بالتضاد) فتقول للرجل تستجهله : يا عاقل . وللمرأة تستجبها : يا قمر . وفي القرآن : (ذق انك انت العزيز الكريم) . وقال عز ذكره : (انك لانت الحليم الرشيد) » .

— * —

المخصص

وافرد ابن سيده في كتابه « المخصص » (52) بابا للاضداد سماه « كتاب الاضداد » . واعتبر ابن سيده هذا الباب كتابا بالفعل ، والاضداد مشكلة علمية جديرة بالبحث ، فصدر الباب بمقدمة في بحثها . وتناول في هذه المقدمة تقسيم الكلام الى مختلف ، ومترادف ومشتراك وعلى كل قسم منها ووضع الاضداد في المشترك وبين ان اصل وجودها اللغات والمجاز ، ورد على منكرها كما رد على منكري الترادف . واقام كلامه هذا في المقدمة على ما قاله سيبويه في اول كتابه ، وشرح أبي علي الفارسي لهذه الأقوال .

واورد ابن سيده في بابه حوالى مئة ضد ، اعتمد في الشطر الاول منها على أبي عبيد ، وفي الثاني على ابن السكيت ، واورد في الجزء الاخير منها اضمادا من مصادر متفرقة . ولذلك نرى الشطر الاول يسير متفقا مع ترتيب باب اضماد الفريب المصنف اتفاقا تاما ، عدا مواضع متفرقة قليلة زاد فيها ابن سيده مادة من مصدر آخر ، او اختل الترتيب فيها . ونرى الشطر الثاني يسير متفقا مع ترتيب كتاب ابن السكيت تماما ، مع حذف المواد التي سبق اقتباسها من أبي عبيد . اذا كان الاثنان اشتركا فيها .

وسار ابن سيده على النهج الذي سار عليه ابو عبيد الا انه مال الى الاختصار أكثر منه . وتمثل هذا

الاختصار في تغيير عبارته ، وعبارة ابن السكيت ، بما يضيفها ولا يخرجها عن معناها . نرى ذلك في قوله (53) : « يقال لملت الشيء المقه لمتا : كتيته ، عقيلية ، ولتمته محوته ، قيسية » .

ونرى ذلك في قوله (54) : « القوي : الذي لا زاد معه ولا مال له ، والقوي : المكسر : يقال : اكسر من (اتيان) فلان فانه مقو ، والقوي : الذي ظهره قوي » . وحذف في بعض المواضع عبارات ضرورية في المادة ، مثال ذلك قوله (55) « السدفة : اختلاط الضوء والظلمة معا كوقت ما بين صلاة الفجر الى الاسفر » فاقصر على العبارة الاخيرة من قول أبي عبيد ، ولم يظهر وجه اعتباره المادة من الاضداد لما حذفه منها .

وتمثل الاختصار فيما حذفه من اشياء . فقد حذف أسماء الفويين الذين رويوا الاضداد وذكرهم أبو عبيد وابن السكيت ، واكتفى بنسبتها الى أبي عبيد وابن السكيت . وكان أبو عبيد خاصة يحب ان يشير الى الاضداد التي اتفق فيها بعض الفويين ، فحذف ابن سيده كل ذلك ..

وحذف بعض الشواهد ايضا .

اما الشواهد التي ذكرها فحذف كثيرا من اسماء قائلها ، وكان أبو عبيد وابن السكيت يذكرهم . وآخر مظاهر الاختصار عدم تكريره اللفظ مع المعنيين المتضادين اكتفاء بذكره مرة واحدة في اول المادة ، في بعض الاضداد ، مثل : « شريت : بعت واشتريت ... دحت الشيء دوحا : جمعته وفرقته ..

ولكن - برغم ميله الى الاختصار - كان لا يحذف شرح الشاهد او التعليق عليه ، كما نرى في شري ، وشعب ، وجون وخلوف والظن وغيرها . وكان في بعض المواضع يحذف الشاهد ويأتي بآخر بدلا منه ، كما فعل في « سواء » .

ويمتاز هذا الباب - الى جانب الاختصار - بما اتى به من اضماد زائدة على ما في كتب ابن السكيت وأبي حاتم وابن الانباري . فقد رجع - للمرة

(52) 13 : 258 .

(53) 26 .

(54) 265 .

(55) 261 .

الاولى فى تاريخ الاضداد - الى معاجم اللغة الكبيرة، كجمهرة ابن دريد (دوح والعوك وخفق وغيرها) والعين للخليل (الحصباء والزاهق) ورجع الى علماء لم يؤلفوا فى الاضداد ، ولكن التقطوا منها أشياء كابي حنيفة الدينوري ، الزاهق) او الفوا فيها ، ولكن روى عنهم اضرادا ليست فى كتبهم كابن السكيت (الحرج) . ولا يختلف علاجه لهذه الاضداد الزائدة عن علاجه لاضداد ابي عبيد وابن السكيت ، غير انه خصص لها الجزء الاخير من بابيه . وان تأنثر منها شيء فى داخل كلامه المقتبس عن ابي عبيد وابن السكيت ..

* — الزهر

على متن الاضداد ، او هو بعبارة ادق ، فى مرحلة متوسطة بين باب الاضداد عند ابي عبيد وكتاب الصغاني من حيث التناول ، ولكنه يفوق باب ابي عبيد من حيث عدد الاضداد التى يحويها . وادق وصف له انه اعظم باب من مجموعة لغوية فى عدد الاضداد ، ومن احسنها دقة تناول . ولا يعيبه غير بعض ما اجراه من حذف شديد فى بعض الاضداد القليلة حتى جعلها غير واضحة ..

ولم يزد فى الاضداد وحدها ، بل زاد احيانا فى الشرح ، مثل ما فى (اودع) ، وحيانا بايراد بعض المشتقات التى لم يوردها سابقوه ، مثل ما فى (المسيح) ، وبعض الزيادات الاخرى التى نرى امثلتها فى نهل . وشرى ، ومثل ، وظن ، وسواء ، وخشب وغيرها . وكان فى بعض الاحيان او اكثرها ينسب هذه الزيادات الى اصحابها .

وفى القرن العاشر الهجري افرد السيوطي فصلا من كتابه « الزهر » للاضداد ، وعنوانه « النوع السادس والعشرون : معرفة الاضداد » . وعالج السيوطي الاضداد علاج ابن سيده لها ، اى اعتبرها مشكلة لغوية تستحق البحث والنقاش . فقدم بين يدي فصله مقدمة تناولت تقسيم الكلام ، واقوال بعض اللغويين فى ذلك وفى الاضداد بنوع خاص ، والدفاع عنها ، والرد على منكريها . واقتبس اقواله هذه من علماء لم نرهم فى المخصص ، مثل الكيا ، وابن فارس والمبرد . ثم انتقل من هذه المقدمة الى الاضداد نفسها .

وفى آخر الباب جمع ابن سيده بعض الالفاظ ، وجعل عنوانها « ما هو فى طريق الضد » . وهو فصل شبيه بالقرب من الاضداد او ما يجري مجراها ، مما رايناه فى كتب الاضداد . واورد فيه بعض الالفاظ التى تختلف معانيها اختلافا يكاد يكون متضادا ، مثل قوله : « سنج عليه الشيء يسنج ستوحا : سهل ، وسنحت بالرجل : اخرجته » . وروى أحد هذه الالفاظ عن ابن السكيت (وليست فى اضراده واحدها عن صاحب العين واحدها عن ابي زيد والخليل معا . ويحتوي الفصل على اربعة الفاظ فقط .

وخلاصة القول ان هذا الباب من المخصص جدير باسم « كتاب الاضداد » الذى اطلقه عليه مؤلفه فهو لا يقل عن الكتب المستقلة فى شيء - لا فى مقدمة تبحث المشكلة ، ولا عدد الاضداد او علاجها او شواهدا ، او ما الى ذلك . بل ماثلها فى العناية بما يجري مجراها ايضا . ولكنه من الكتب التى تميل الى الاختصار ، فتركز اهتمامها بالاضداد ، وما يوضح تضادها من شواهد وعلاج ، فلا تكثر من الاستطراد وتناول الامور النحوية واللغوية والمعاني الاخرى للاضداد ، وما مائل ذلك من أمور وجدناها فى بعض الكتب المستقلة . فهو فى مرحلة متوسطة بين هذه الكتب وبين كتاب الصغاني القاصر

واعتمد السيوطي فى الجزء الاول من اضراده على ما رواه ابو عبيد فى الغريب المصنف ، كما فعل ابن سيده . ولكنه حين انتهى من اضراد ابي عبيد لم يقتبس اضراد ابن السكيت مثله بل تتبع الاضداد فى بعض المعاجم مثل جمهرة ابن دريد ، وديوان الادب للفارابي ، والصحاح للجوهري ، والجمل لابن فارس والقاموس للفيروزابادي ، وكتب الامالي والرسائل الخاصة مثل امالي القالي ، ومجاز الكلام وتصاريفه لشعرب ، وادب الكاتب لابن قتيبة ، ونوادر ابن الاعرابي والمقصود والممدود للاندلسي ، والمشاهدة للأزدي ، والانفعال لابن القوطية . ويتضح من هذا ان السيوطي خالف القدماء فى المراجع التى اعتمد عليها . فقد كانوا يستقون من كتب الاضداد نفسها ، واستقى ابن سيده للمرة الاولى من بعض المعاجم . فلما جاء السيوطي اكثر من هذا الورد وتوسع فيه حتى صار الاصل عنده .

ونهج السيوطي لنفسه ان يذكر اللفظ ومعنييه المتضادين ، وقد يكرر اللفظ مع كل معنى . ولا يعنى الا بما تعلق بالاضداد نفسها ، اى يحذف

وخلاصة القول في هذا الفصل انه يضارع فصل ابن سيده ، ولا يقلل من شأنه الا استفناؤه عن الشواهد ، فهو من هذه الناحية يوضع مع كتاب الصغاني ، غير ان هذا يفوقه في الترتيب والتنظيم وخلوه من التكرار .

— * —

« الخاتمة »

الاضداد ظاهرة غريبة .

فالذهن ينكرها للوهلة الاولى ، ويأبى ان يصدق وجود لفظ واحد يدل على معنى وضده . فالمنطق العقلي يعرف الضدين بأنهما الامران اللذان لا يقعان على شيء واحد ، وفي وقت واحد . ومن ثم كانت الالفاظ الاضداد غريبة في ماهيتها . وعلى هذا الاساس أنكرها من أنكرها . ولكن هذا الاساس لم يمنع ان يؤمن بها جماعات من القدماء ، وقلّة من المحدثين . وكانت الفئة الاخيرة — او افراد منها — هي التي حاولت ان تعلل هذه الظاهرة الغريبة بالرجوع الى التفكير البشري في فطرته وسذاجته ، او بالتأمل في مراحل معينة من التاريخ البشري او التاريخ العربي القديم .

ولعل ظاهرة لغوية أخرى بمثل سوء الفهم الذي أحيطت به ظاهرة الاضداد . فمنذ عهد مبكر ، اختلف اللغويون فيها ، ولا زالوا مختلفين . فاذا تأملنا ما دار بينهم من نقاش وجدنا الفاظهم وعباراتهم تتنافر وتتصادم ، والمؤدى الاخير لما يقولون واحدا . فهم يتجادون حول تصورين لا تصور واحد ، وفي مجالين لا مجال واحد . ولو تحدثوا عن تصور واحد ، وفي داخل مجال واحد ، لهذا كثير من الخصومة ، وبطل كثير من الأدلة ، وربما ضاع الخلاف .

فقد كان المنكرون للاضداد ينظرون في مجال ضيق لا يتجاوز اية لهجة قبلية على حدتها . ولما لم يعثروا على اُضداد في داخل اللهجة الواحدة انكروا الاضداد برمتها . وأبوا ان يسموا بالاضداد ما جاء دالا على معان متضادة في لهجات قبلية مختلفة ، وان ضمتها اللغة العربية بعد .

الشواهد ، والشروح ، والمشتقات وما اليها ، فلا ذكر لها عنده ، الا في النادر جدا . فبابه من « متون الاضداد » اي من نوع كتاب الصغاني . يقول مثلا (56) : « اجعلب الرجل : اذا اضطجع ساقطا ، واجعابت الابل : اذا مضت جادة . وبعث الشيء : اذا بعته من غيرك ، وبعته : اشتريته . وشريت : بعث واشتريت . وشعبت الشيء : اصلحته ، وشعبته : شققته ، وشعوب منه ، وهي النية لانها تفرق . والهاجد : المصلي بالليل . والهاجد : النائم » .

ولجأ في الاضداد التي نقلها عن أبي عبيد الى ترتيبها على قائلها . فقد نشر أبو عبيد اُضداد كل لغوي نشر دون ان يجمعها في موضع واحد ، فكانت عنده مختاطة بما يروى لغيره فلما ادخلها السيوطي في فصله ، فصل كل نوع على حدة ، وقدم اُضداد أبي زيد ، فالاصمعي فأبي عبيدة فالكسائي فالاموي ، فما رواه غير واحد ، فأضداد أبي عمرو ، فالاحمر . وكان واجبا عليه تأخير الاضداد المهمة الى ما بعد اُضداد الاحمر . ومن الغريب ان « الاحمر » لا يرد له ذكر في فصل الاضداد من كتاب الغريب المصنف الموجود في ايدينا اليوم ، وربما سقط الاسم من نسختنا وكان في نسخة السيوطي . اذ ان هناك بعض الاختلاف بين النسختين ، فبينما تنسب نسختنا : « شعب » للاصمعي ، ينسبها السيوطي لابي زيد ، وسقط من نسختنا احد معنيي « اشكى » المتضادين ، وهو موجود عند السيوطي .

ولكن السيوطي عندما ترك اُضداد أبي عبيد اضطرب ، ولم يفلح في ترتيبها حتى على ترتيب الكتب التي اخذ منها ، بل أورد ما وقع منها تحت نظره ، ولو كان سبق ذكره . ولذلك تكررت عنده بعض المواد مرتين وأكثر ، مثل « سوى » رواها عن أبي عبيد — وابن دريد ، و « الفايبر » رواها عن ابن دريد والجوهري ، و « نصل » عن الفارابي والجوهري ، وغيرها . فبلغت الاضداد عنده قريبا من مئة وعشرين ، وهي في الحقيقة اقل من ذلك كثير .

وختم السيوطي فصله بفائدة ذكر فيها اسماء بعض من ألف في الاضداد ، ثم سرد اكثر مقدمة كتاب الاضداد لابي بكر بن الانباري . .

وقصر المنكرون تصورهم على الالفاظ فى وضعها الاول. واعلنوا انهم لم يجدوا لفظا واحدا وضعه العرب حين وضعوه دالا على معنيين متضادين. اما اذا كان الاستعمال او التبديلات اللغوية او التغيرات الصرفية قد ادت بعد ذلك الى ان تزول الفوارق بين بعض الالفاظ ذوات المعاني المتضادة ، فتبدو الآن فى صورة واحدة ، ومتضادة المعنى ، فليس ذلك من الاضداد عندهم .

ونستطيع ان نقول : ان كل لفظ توفر له سبب ما فادى به الى الدلالة على معنيين متضادين يابى المنكرون ان يسموه ضدا ، مهما كان هذا السبب : لهجات قبلية ، او حذف ، او تخفيفا او ابدالا ، او اعلاالا ، او مجازا ، او تغاؤلا وتطيرا ، او ما شاكل ذلك من امور . وانما الضد عندهم يجب الا يكون هناك سبب فى دلالة هذه ، بل وضع اصلا لها .

اما المؤيدون للاضداد فوسعوا نظرتهم ومجالهم . نظروا الى اللغة العربية فى شمولها وعمومها . فلفت نظرهم وجود هذه الفئة من الاضداد . ثم لم يعنوا بالبحث عن اسبابها او - ان شئنا الدقة - لم تهتمهم الاسباب - فقد عرفوا اسبابا الظاهرة . واعلن اكثرهم ان كثيرا من الاضداد آتية من اللهجات القبلية ، وكشفوا عن كثير من هذه الطائفة من الالفاظ . ولا خلاف بينهم وبين المنكرين غير انهم ارتضوا تسمية هذه الالفاظ القبلية بالاضداد ، ولم يرتضها الاخرون .

كذلك لم يقصر المؤيدون نظرتهم على الالفاظ عند وضعها الاول ، بل اغفلوا هذا الوضع عامدين اذ لا اهمية له عندهم . وامعنوا النظر فى الالفاظ العربية التى يسمعونها ، ويتحدثون بها ، ويدونون ما يدونون . فوجدوا فيها فئة من هذه الالفاظ ، التقطوها ومنحوها اسم الاضداد دون ان يأنهوا للاسباب التى ادت بها الى ذلك ، ودون ان ينكروا هذه الاسباب . بل لقد شارك بعضهم كقطرب فى الكشف عن بعضها كالتوسع وما شاكله ، لان وجود سبب للتضاد لا يتنافى عندهم مع التسمية .

ولعل الاجابة عن الاسئلة التالية تزيل كل لبس امام المتنازعين :

1 - هل توجد فى العربية الفصحى التى نعرفها اليوم الفاظ ذوات صورة واحدة ، ومعنيين متضادين؟ اعتقد ان احدا لا يستطيع ان ينكر هذا الوجود .

2 - هل تعد هذه الالفاظ ظاهرة خاصة يجدر بها التسجيل بين الظواهر اللغوية ؟ اعتقد ان احدا لا ينكر هذا ايضا . واضيف الى ذلك ان هذه الظاهرة لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل توجد فى بعض اللغات السامية كما كشف بعض المستشرقين ، وفى بعض اللغات الاوربية كما كشف الاستاذ عبد الفتاح بدوي . واذن فوجود الاضداد ليس منقصة للغة العربية ، كما ظن الشعوب قديما ، وكما يفهم من اقوال بعض المستشرقين حديثا ، مما كان واحدا من الدوافع - فى اعتقادي - التى حملت عبد الفتاح بدوي على المغالة فى رفض الاضداد .

3 - هل تستحق هذه الظاهرة تسمية خاصة ؟ اعتقد ان كل ظاهرة مهما كان شيوعها يجدر بها ان يكون لها اسم خاص . اما المؤيدون فقد سموها « الاضداد » ، فاذا كان المنكرون يجدون لها تسمية اكثر ملاءمة ، فاهلا بها .

4 - هل الاضداد بالشيوع الذى صورته القدماء ؟

واضح من الدراسة الماضية ان تصور الاضداد اختلف من وقت لآخر ، ومن رجل الى رجل ، فضايق حيننا واتسع آخر . فكان تصور الاضداد ضيق المجال ، باديء الامر عند المحدثين فيها دون ان يحاولوا لها جمعا او تدوينا . ولكن هذا التصور اتسع اتساعا غربيا عند اول مؤلف فى الاضداد : قطرب ، فشمّل شتاتا غربيا من الالفاظ ، مما يدل على ان قطربا لم يكن يحسن تصور الاضداد ، ولا احسن وضع الحواجز الفاصلة بينها وبين غيرها واضطر اكثر من جاء بعد قطرب الى تضيق المجال الذى وسعه ، ونفى كثير من الفئات والالفاظ التى ادخلها فى كتابه . فاخذ تصور الاضداد فى الوضوح ، وحدودها فى البروز . ثم اتسع المجال مرة اخرى عند ابن الانباري خاصة بما ادخل من انواع جديدة من الاضداد . واذن فالمجال كان متغيرا عند القدماء ، وما اظن الا انه كذلك عند المحدثين ، وان كان اضيق عندهم منه عند القدماء .

5 - هل تعد كل الانواع التى اتفق عليها القدماء من الاضداد ؟

اعتقد ان احدا لا يجادل فى ان ذلك مستحيل ، وان بعض ما عده القدماء من الاضداد لا يستحق هذه التسمية . واضرب امثلة لذلك بما يلي :

ج - ما وضع فى الاضداد تعسفا او تكثرًا ،
مثل الالفاظ التى تختلف معانيها دون ان تتضاد ،
والالفاظ التى تتضاد معانيها بسبب ما يتعلق بها من
ادوات كـرغب عن والى ، وانصرف عن والى ،
وغيرهما .

6 - ما السبيل الى معرفة اللفظ الجدير باسم
الضد ؟

اعتقد ان السبيل الوحيد الى ذلك هو المعنى
الذى يدل عليه اللفظ . وهنا احتراز فأقول المعنى
الحق للفظ . واعني بهذا الاحتراز امثال هذه الالفاظ
التي لم يحسن بعض اللغويين التنبيه الى معناها الحق ،
ونسبوا اليها معاني بدت متضادة . فالصريم هو
الوقت المنقطع ، اعني الوقت المنقطع من وقت آخر ،
كالليل ينقطع من النهار ، والنهار ينقطع من الليل ،
وليس الصريم الليل خاصة ولا النهار خاصة . والدليل
الجلي على ذلك أصل اللفظ ، ومعناه ، فأصله
الصرم ومعناه القطع .

والسدفه ليست ظلمة حائكة ولا ضوءا مشرقا ،
بل هي الظلمة التى ينبعث فيها الضوء ، او الضوء
الذى تشوبه الظلمة ، هي اختلاط الظلمة بالضوء ،
سواء كان هذا عند دخول الليل او انبلاج الصباح .
وامثال ذلك كثيرة ، فطن اليها بعض القدماء
انفسهم ، كما فعلوا فى المأثم والطرب وغيرهما .
وليست هذه الالفاظ من الاضداد فى شيء .

واذن فما وجدنا معانيه تؤول الى معنى واحد
لا تضاد فيه يجب ان نخرجه من الاضداد . وما دل
من الالفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى خارجيا
او ذهنيا ، يجب ان نخرجه من الاضداد .

وانما يجب ان يكون الضد لفظا واحدا ، ذا
صورة واحدة ، ومعنيين متضادين حقا لم يمكن
الجمع بينهما . تلك هي الصورة الصحيحة
للاضداد ، وذلك هو السبيل القويم الى تطبيقها .

ا - ما اختلف فى تفسيره من الآيات ، والاشعار ،
والاقوال . فالانفاق تام بين اللغويين انه لا يوجد
فيها لفظ ذو معنيين متضادين . وانما جاء التضاد من
اختلاف الناس فى فهم هذه العبارات فى مجموعها .
ومثال ذلك الآية التى اوردناها سابقا : (وقال رجل
مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه) . فقد اختلف
المفسرون فيما يتعلق به الجار والمجرور (من آل
فرعون) . فذهب بعضهم الى انه متعلق بمحذوف
صفة لـ (رجل) ، فصار القائل عندهم رجلا مؤمنا ،
من اقرباء فرعون ، يكتم ايمانه عن الناس جميعا .
وذهب بعضهم الى انه متعلق بالفعل (يكتم) وان
الآية حدث فيها تقديم وتأخير ، وان الترتيب العادي
لها : قال رجل مؤمن يكتم ايمانه من آل فرعون ،
فصار القائل عندهم رجلا مؤمنا ، غير انه يخفي هذا
الايمان عن آل فرعون . وليس هذا وامثاله من
الاضداد فى شيء .

ب - الفاظ وعبارات التفاضل والتطير
والاستهزاء . فاننا يجب ان نعترف ان المتحدث قد
يتكلم على وقع ذهني ، يصدق احيانا على الواقع
الخارجي ولا يصدق اخرى . فالتحدث (المتفائل او
التطير) يكره الواقع الخارجي ، ويحاول ان يتجاهله ،
فيوفر لنفسه كل السبل التى تؤدي به الى نسيانه .
ومن اهمها عدم التحدث عنه او اعطاؤه اسما آخر
لا يدل عليه . واذن فالتفائل حين يسمى الملدوغ
سليما ، والمريض معافى ، لا يريد الصورة التى
يكرهها ، بل الصورة التى يحبها . فاللفظ اذن
مستعمل فى معناه الاصلي ، وان كان لا يتفق مع
الواقع الخارجي . اضيف الى ذلك ان المتحدث
يريد ان يرسم فى ذهن المستمع صورة متفائلة .
فاللفظ لا يدل الا على معناه الاصلي عند المتكلم
والمستمع كليهما ، وان كان معناه ذهنيا لا واقع له
فى الخارج . لو لم يكن الامر كذلك ، لما كان هناك
تفاؤل او تطير او استهزاء . واذن ليس هذا
وامثاله من الاضداد فى شيء .

« المراجع »

المطبوعة

- الاصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب : الأضداد ، طبع بيروت 1913 .
ابن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم : الأضداد ، طبع الكويت 1960 .
الشعالبي : سر العربية في مجاري كلام العرب وسننها والاستشهاد بالقرآن على أكثرها ، طبع
المكتبة التجارية 1938 .
الخليل بن أحمد : العين ، مصور بمكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد ، وطبع الجزء الاول
منه ببغداد 1967 .
ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن : الجمهرة ، طبع حيدر اباد بالهند .
ابن الدهان ، أبو محمد سعيد بن المبارك : الأضداد ، المطبعة الحيدرية بالنجف 1371 - 1952 في
نقائس المخطوطات .
الرازي ، أبو الحسن أحمد بن فارس : الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ،
طبع بيروت 1964 - 1383 .
السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد : الأضداد ، طبع بيروت 1913 .
سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان : الكتاب ، طبع بولاق 1316 .
ابن سيده : المخصص ، المجلد 13 ، طبع بولاق .
السيوطي : الزهر في علوم اللغة وأنواعها ، طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .
الصفاني ، أبو الفضائل الحسن بن محمد : الأضداد ، طبع بيروت 1913 .
أبو الطيب اللغوي الحلبي عبد الواحد بن علي : الأضداد في كلام العرب ، طبع دمشق 1382 -
1963 .
عبد الفتاح بدوي : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أضداد (الطبعة العربية) .
ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري : أدب الكاتب ، ط الرابعة 1382 / 1963 .
قطرب ، أبو علي محمد بن المستنير : الأضداد ، في مجلة Islamic ، المجلد الخامس ، سنة 1931 ،
من ص 247 إلى 293 .
المبرد : الكامل ، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
منصور فهمي : الأضداد ، مجلة مجمع اللغة العربية (الملكي) ، الجزء الثاني ، صفر 1354 -
مايو 1935 .

المخطوطة

- أحمد بن أحمد بن اسماعيل الحلواني : الكاس المروق ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
عبد الله بن محمد بن القاضي : منبه الرقاد في ذكر جملة من الأضداد ، مخطوط بدار الكتب
المصرية .
عبد الله بن نجاة الأبياري : دورق الأنداد في نظم أسماء الأضداد ، مخطوط بدار الكتب المصرية .
أبو عبيد القاسم بن سلام : الفريب المصنف . مصور بمكتبة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
محمد المدني : الأضداد . المكتبة السليمانية بالآستانة ، في مجموعة تحت رقم 1041 ، يبدأ
الكتاب من وجه ورقة 98 إلى وجه ورقة 103 .

المراجع الأجنبية

Abel: Über den Gegensinn der Urworte, Leipzig 1884.

Giese: Untersuchungen über die Addad auf Grund von Stellen aus altarabischen Dichtern, Berlin 1894,

H. Hirschfeld: The Journal of Royal Asiatic Society, 1895.

تمريف وتعليق على كتاب جيز السابق .

Landau: Die gegensinnigen Wörter im Alt—und Neuhebräischen, Berlin 1896.

Landberg, Le comte de: La langue arabe et ses dialectes, Leide 1905.

Leguest: Etudes sur les formations des racines sémitiques, Paris 1858.

Nöldeke: Wörter mit Gegensinn (Addad), Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910.

Th. M. Redslob: Die arabischen Wörter mit entgegengesetzten Bedeutungen, Göttingen 1873.

Weil: Addad, in Encyclopydia of Islam.

دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية وتجربة اللغات الأجنبية في البلدان الإفريقية⁽¹⁾

إدريس الكتاني

الأستاذ بجامعة محمد الخامس (الرباط)

إن الدور الهام الذي لعبته اللغات في تاريخ الحضارات والفكر البشري ليس بالشيء المجهول الذي يحتاج إلى توضيح جديد هنا ، وإذا كانت الدول الكبرى خلال التاريخ ، وفي العالم المعاصر ، تهتم بتطوير ونشر لغاتها الوطنية ، فلتقديرها لهذا الدور ، وشعورها بأهميته البالغة في بنيانها الاجتماعي ، وعظمتها الدولية .

وتعتبر فرنسا من أشد الدول المعاصرة احساسا بهذا الدور ، ولذلك فهي تبذل في سبيل لغتها ما لا تبذله أية دولة أخرى .

منظمة اليونسكو تنصح الدول النامية باستعمال لغاتها الوطنية في التعليم

وفي تقرير أعدته لجنة من خبراء اليونسكو كلفت بدراسة مسألة الحفاظ على اللغات الوطنية للشعوب النامية ، وتطورها ، والتدابير التي يمكن اتخاذها لتعجيل باستعمالها في التعليم ، طبقا لرغبات هذه

أن اللغة ليست أداة تفاهم واتصال فقط ، ولكنها أيضا أداة للتفكير والتأمل . والإنسان يفكر باللغة التي يتكلمها ، ويعيش تحت تأثير قيمها الثقافية والعلمية والدينية ، وباختصاصه واستيعابه لرموز لغته الوطنية ، وكنائياتها ، واستعاراتها ، وإيحاءاتها ، ودلالاتها الخاصة بالزمان والمكان ، يستطيع أن يدرك الحقائق العلمية ، والظواهر الاجتماعية ، ويتجاوب مع الناس والأحداث ، وينمي طاقاته العقلية والبدنية والإنتاجية ، وذلك ببذل نفس الجهود المعتاد في البلدان المتقدمة .

لكن عندما يفرض على شعب متخلف استعمال لغة أجنبية عنه ، لأسباب استعمارية أو سياسية أو طبقية أو مذهبية ، هل تستطيع اللغة الأجنبية أن تؤدي وظيفة اللغة الوطنية ، وأن تصبح أداة سهلة لتحقيق الأهداف الوطنية ، وخاصة ما يتعلق بمحاربة الأمية ، وإيقاظ الوعي الوطني ، ونشر الثقافة والقيم الأخلاقية ؟ وهل سيكون بوسعها أن تساعد على تعميم التعليم ، وتحقيق تطور اقتصادي واجتماعي لمعموم المجتمع ؟ ..

(1) « نشر هذا البحث أولا باللغتين الفرنسية والانجليزية بمجلة

« Cahiers Africains d'Administration Publique » التي يصدرها المركز الإفريقي للتكوين والبحث الإداري للتنمية « CAFRAD » التابع للأمم المتحدة بمدينة طنجة ، في عددها الخاص بتحضير المؤتمر الإفريقي المنعقد بطنجة في 18 شتنبر 1972 لدراسة « مشاكل نمو الطاقات البشرية والتسيير في القطاع العام الإفريقي » عدد 8 غشت 1972 . وقد تفضل السيد الأستاذ الكتاني باتحاف مجلتنا بهذا البحث القيم الذي نختصره للقراء .

مع مصلحته هو لا مصلحة البلد الافريقي الذي يعنيه الامر ، ونظرا لذلك فان الشخصية الوطنية لاغلب الدول الافريقية أصبحت هي نفسها من مخلفات الاستعمار ، فليس من المدهش اذن أن عددا قليلا جدا من هذه الدول هي التي استطاعت أن تبني لغة فصحي للتقنين (Langue véhiculaire) تكون في نفس الوقت « وطنية » و « افريقية » .

ان الاساتذة لسوو وكرانست ووليامس (Low, Grant et Williams) فضلا عما اكدوه من أن الاطفال الذين يدرسون بلغة تختلف عن لغة الامومة لا يتقدمون الا ببطء ، يعترفون بأن الانجليزية تعلم بطريقة سيئة جدا في افريقيا ، واغلب المعلمين في عدة نواح افريقية لم يتلقوا أي تكوين ، وخاصة في افريقيا الغربية ، وحسب تقرير بانجو Banjo سنة 1962 ، كان يوجد في نيجيريا الغربية 26 000 معلم من بين 40 000 لم يقع تكوينهم .

« وهذه الانتقادات تتوجه خاصة الى المدارس الابتدائية ، ومع ذلك فان التعليم الثانوي أيضا لا يقوم الا على اقلية من التلاميذ ، ويوشك الامر ، كما هو حاصل في الهند ، أن تنفصل النخبة عن الشعب ، بسبب استعمال اللغة الانجليزية » .

وبعد استقلال الدول الافريقية استعملت بعض اللغات الافريقية المحلية في نطاق معين ، في المستوى الابتدائي ، ولكن الانجليزية والفرنسية لم تلبثا أن دخلتا في سلك التعليم ، وغالبا في السنة الاولى من الثانوي ، وأصبحتا لغات فصحي .

وبلاحظ ان طانجانيقا هي احدى البلدان الافريقية النادرة - باستثناء الدول العربية الافريقية - التي لها لغة وطنية ، هي اللغة السواحلية . وقبل استقلال هذه البلاد في 2 دجنبر سنة 1961 ، عمل حزب الاتحاد الوطني الافريقي لطانجانيقا « Tanu » على تعليمها في مدارس وطنية خاصة تابعة له ، كما عمل على تعليمها للكبار في البلاد كلها ، ولم يتردد بعد استقلال البلاد في استعمالها كلفة رسمية في دوائر الحكومة والبرلمان والتعليم ، وشعر في ترجمة النصوص التشريعية الى هذه اللغة ، وفي سنة 1965 أصبحت اللغة السواحلية اجبارية في جميع المدارس الثانوية ، وفي سنة 1968 فقط نظم أول درس جامعي عن الادب السواحلي في تنزانيا .

الشعوب ، وعلى أساس التجارب المعروفة في البلدان الاخرى ، اكدت لجنة اليونسكو هذه انه لا يوجد أي عائق في نظام لغة ما يحول بينها وبين جعلها لغة حضارة حديثة ، وترى هذه اللجنة انه اذا كانت (اللغة الأم) كفيلة بأن تكون لغة للتعليم الجامعي والتقني ، فانه يجب استعمالها لهذا الغرض ، وطلبت اللجنة أيضا من هيئة اليونسكو أن « تدرس » امكانيات تنسيق المصطلحات العلمية والفنية للغات العلمية ، وذلك لمساعدة اللغات النامية على أن تكون لها مصطلحاتها الخاصة ، وأن تتطابق في ذلك ، بقدر الامكان ، مع مصطلحات اللغات العالمية .

البنك الدولي للبناء والتنمية ينصح باستعمال اللغة الوطنية في التعليم

وهناك مؤسسة مالية دولية اخرى اتخذت موقفا من اللغات الاجنبية يتفق مع موقف اليونسكو ، ففي سنة 1963 طلبت الحكومة المغربية من البنك الدولي للبناء والتنمية القيام بدراسة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب ، وفي التقرير الذي اعدته بعثة البنك ، بعد أن قضت في المغرب شهرا في الدراسة والبحث ، نصحت الحكومة المغربية ، ومن وجهة نظر اقتصادية بحث ، بأن تضع حدا لتعليم اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية توفيراً لـ 30 ٪ من وقت التلاميذ والمعلمين ، وتوفيراً لنحو 7 ملايين من الفرنك التي تنفق بدون طائل في هذا المجال ، وتخصيص هذا المبلغ الضخم في طبع الكتب ، واعداد الادوات المدرسية ، وتكوين المعلمين ، الى آخر ما جاء في التقرير من النصائح المتعلقة بتخطيط سياسة وطنية ملائمة لحاجتنا ومصلحتنا .

تجربة اللغة الاجنبية في شرق وغرب افريقيا

كانت اللغة الانجليزية حتى سنة 1963 هي اللغة الرسمية لدول افريقيا الشرقية الثلاث : طانجانيقا وكينيا واوغندا ، كما هي الحال في مستعمراتها الافريقية السابقة الاخرى ، ولكن هذا لا يعني أكثر من انها لغة نخبة تمثل نسبة ضئيلة من السكان ، لا يتجاوز مستواها بضعة اعوام في التعليم .

واكبر مشكلة واجهتها هذه البلدان بعد استقلالها السياسي هي ان الاسلوب التربوي عندها من وضع النظام الاستعماري الذي عمل على أن يتناسب ويتطور

هذه اللغة ، واذا كان الرئيس نيريري قد استطاع ترجمة « يوليوس قيصر » الى اللغة السواحلية فان هذه اللغة لا يمكن ان تكون صعبة للغاية - كما حاولت التايمس (Times) في ملحقها الادبي سنة 1967 اظهار ذلك - مثلما يقال بالنسبة للغات افريقية اخرى. وهناك عقبات كبرى وضعت لحذف اللغة الانجليزية او الفرنسية لفائدة لغات محلية ، وحتى لو لم تكن هذه شائعة كاللغة السواحلية .

ونشير اخيرا الى ان وجود لغة وطنية افريقية واسعة الانتشار ، كاللغة السواحلية كان له تأثير كبير على القادة الافارقة الذين كانوا بصدد انشاء منظمة سياسية قوية .

وتلعب اللغة السواحلية في اوغندا - التي استقلت سنة 1962 ، ويبلغ عدد سكانها 10 ملايين - دورا اقل أهمية من دورها في تنزانيا ، فحتى سنة 1963 كان في اوغندا عدد كبير من الاوغنديين يفهمون اللغة السواحلية في مستوى قضاء حاجاتهم من السوق ، كما ان عددا اقل من ذلك يتكلم هذه اللغة بسهولة ، مع العلم بانها تعلم في المدارس الاوغندية خلال فترة التقارب بين البلدين ، وقبل ان يقع التخلي عنها في سنوات 1930 . اما النقابات والاحزاب فكانت تستعمل الانجليزية في اجتماعاتها ، وترجم خطبها الى اللغة الاوغندية او السواحلية .

ويرجع ضعف اللغة السواحلية باوغندا لكون الطرق التجارية بها لم تكن قد تطورت بالقدر الذي حدث في طنجانيقا ، وهناك سبب آخر اكثر أهمية وهو وجود قبيلة كبيرة وقوية كانت تتمسك باستعمال لغتها .

وبالرغم من القرار الذي صادق عليه مجلس الشعب الاوغندي سنة 1962 بتقوية استعمال السواحلية لفائدة الوحدة بين الشعبين الاوغندي والتانزاني ، فان المسؤولين الاوغنديين ظلوا مستمرين في استعمال لهجات قبلية في برامجهم الاذاعية ، ولم يقتصروا على السواحلية .

وكان يبدو ان النخبة الاوغندية قد اختلفت فيما يرجع لمسألة اللغات ، واتضح هذا بمناسبة حوار جرى سنة 1962 حيث انتصر عدد من الشخصيات السامية (ثلاثة منهم اصبحوا وزراء بعد ذلك) لفائدة اللغة السواحلية ، وعلل أحدهم وهو نكوبي موقفه بأنه استحال عليه مدة عشرين عاما القاء خطب بالانجليزية امام الجماهير الشعبية ، بينما عارض سروانو الذي

ولم تصل سنة 1970 حتى فرض على جميع التلاميذ ان يجتازوا امتحانا في هذه اللغة في مستوى البكالوريا . « مع العلم بأن تعليما متقدما باللغة الانجليزية لا يزال مفروضا في السنة الاولى من التعليم الثانوي ، ويتمنى في بعض الاوساط ان تصبح التربية الوطنية كلها بما فيها التعليم الجامعي باللغة السواحلية ، ومع ذلك فان اعداد المواد البيداغوجية قلما يتجاوز مستوى المدارس الابتدائية » .

وفي سنة 1970 ايضا اعتبرت اللغة السواحلية الوحيدة التي يمكن لمرشحي الاتحاد الوطني الافريقي استعمالها اثناء حملتهم الانتخابية ، وفعلما فقد صرح نائب رئيس الجمهورية رشدي كاواوا قائلا : « اذا كان السكان لا يعرفون اللغة السواحلية فان جميع المرشحين يجب ان يكونوا مصحوبين بمرجم » ، وعندما أصدر كاواوا الامر لجميع الادارات الرسمية ، والى لجان الاتحاد ، سواء على المستوى الاقليمي او في المقاطعات ، باستعمال اللغة السواحلية كلفة تعبير ادارية قدم بصفة خاصة ، الملاحظات التالية : « ان اكبر جزء من الاوراق المستعملة لا تزال حتى الآن مطبوعة بالانجليزية مع اننا نعلم جيدا ان اغلبيه الذين يعنيههم الامر لا يعرفون هذه اللغة ، انها اهانة موجهة الى الامة » .

وفضلا عن ذلك فقد قام الرئيس نيريري بترجمة يوليوس قيصر (Jules César) لشكسبير الى اللغة السواحلية ، وهو الذي قال : « في خلال ثماني سنوات لم التجيء لمرجم الا مرة واحدة » .

وقد اكتسبت اللغة السواحلية اهميتها من عدة عوامل ، فهي منتشرة في جزء كبير من افريقيا الشرقية ، وخاصة في الكونغو الشرقي واوغندا الجنوبية وهي ايضا منتشرة في كينيا ، فضلا عن انها أصبحت اللغة الرسمية في تنزانيا ، وهي لغة تعبير عن جميع الاشياء والافكار ، وبفضلها استطاع موظفو الاتحاد الوطني الافريقي لطنجانيقا ان يتصلوا بالقاعدة الشعبية ، وان يقوموا بنشاطهم في الاقاليم التي لا تكاد تعرف . يضاف الى ذلك ان اللغة السواحلية كانت دائما مقوما اساسيا للشخصية الوطنية لطنجانيقا ، واحدى خصائصها العميقة .

ومن المفيد ان نشير الى ان اللغة السواحلية ، حسب جميع القواعد ، بعيدة من ان تعتبر لغة « بدائية » ذلك ان ادبها الحي الشعري يرجع الى القرن السابع عشر ، ومن اجله وقع استعمال الكتابة العربية ، ولم يقتصر الامر على الكتابة ، فقد كانت تعرف ايضا من

السواحلية ، بأن حوالي نصف السكان يفهمون اللغة السواحلية .

ومن الجدير بالملاحظة ، كمثل على صعوبة اختيار لغة وطنية ، انه يوجد بكنيا 42 جماعة قبلية لعدد من السكان يبلغ احد عشر مليونا ، ولا يتجاوز عدد اكبر جماعة منها وهي كيكويو مليونا ونصف مليون ، ومن الوجهة القبلية تعتبر السواحلية الآخذة في الانتشار بكنيا لغة « محايدة » ، لها حظوظ لتصبح لغة وطنية ، ولكن الانجليزية حتى الآن لا تزال هي اللغة الرسمية والتربوية .

والارقام المنشورة في الجدول التالي عن اللغات المستعملة في صحف الدول الثلاث تؤكد أن السواحلية هي اللغة الوطنية لطنجانيقا ، وانها لغة مهمة في كينيا ، كما انها تستعمل الى حد ما في أوغندا . وهذا التشابه اللغوي بين كينيا وطنجانيقا يوضح الفكرة التي أعلنها سنة 1963 عدد كبير من السياسيين ، والتي تؤكد أن الروابط بين الكينيين والطنجانيقيين أقوى منها بينهما وبين الاوغنديين .

أصبح فيما بعد الرئيس المساعد للمجلس : ونديوب الذي أصبح نائب رئيس الدولة ، بصراحة في استعمال السواحلية .

وأخيرا ، في سنة 1963 قرر الوزير الاول ميلتون أوبوت الاستعمال العال للغة السواحلية ، ولكن رئيس U.P.C. جوهن بابيها لم يكن متحمسا ، بينما أكد وكيل الدولة بأن الاوغنديين لن يقبلوا أبدا اللغة السواحلية .

فاذا انتقلنا الى كينيا ، وهي الدولة المجاورة لكل من أوغندا وطنجانيقا على ساحل المحيط الهندي ، والتي نالت استقلالها سنة 1963 ، فنجد انها تتوفر على سكان يتكلمون سواحلية « أهلية » في الساحل ، كما كانت صورة مشوهة منها تستعمل منذ زمن طويل بين اصحاب الاعمال وعمالهم ، وهكذا قاومت اللغة السواحلية الجهود التي بذلها النظام الاستعماري لازالتها .

وقد أكد وزير الانباء الكيني السابق السيد اشيانك أونيكو سنة 1963 ، وهو من اكبر انصار

نسبة الصحف المنشورة بمختلف اللغات سنة 1962

لغات محلية	الانجليزية	السواحلية		
—	30	70	صحف يومية	طنجانيقا
2	26	72	صحف شهرية	
—	64	36	صحف يومية	كينيا
13	41	46	صحف شهرية	
51	49	—	صحف يومية	أوغندا
93	7	—	صحف شهرية	

لقد حصلت مدغشقر ، البالغ عدد سكانها 6.750.000 ، على استقلالها سنة 1960 ، ومن الجدير بالملاحظة أن طلبة الجامعة وتلاميذ التعليم الثانوي الذين قاموا باضرابات ابريل وماي 1972 التي شارك فيها السكان ، وهزت كيان الدولة ، وازغمت رئيس الجمهورية على تسليم سلطاته للجيش ، هؤلاء الطلبة يمثلون الجيل الذي بدأ تعليمه في المدرسة المباشية المتفرنسة في عهد الاستقلال . وهذا

تجربة اللغة الأجنبية في مدغشقر

واذا كانت مشكلة اللغة الأجنبية لا تبرز للعيان بحدة في كثير من الدول الافريقية ، فلأنها غالبا ما تختفي خلف مشاكل التعليم التي تلتحم بها ، وهذه المشاكل نفسها كثيرا ما تندمج في اطار المطالبات الوطنية والسياسية العامة التي تتبناها المعارضة ، وتواجه بها الحكم القائم .

فهذا أولا وبالذات ، أن التعليم القائم ليس وطنيا طالما انه لا يعتمد على اللغة الوطنية التي هي شرط أساسي في نظرهم ليصبح التعليم عاما ، وديمقراطيا ، وفي خدمة المصالح القومية العليا للشعب كله ، ويتخصص من التبعية والسيطرة والتوجيه الاجنبي ، ذلك التوجيه الذي يحصر هدفه في تكوين عدد محدود من الاطر التي تحتاج اليها ادارة الدولة فقط .

تجربة اللغة الاجنبية في الجزائر

وفي اطار النظام الاستعماري الذي عرفته الجزائر من 1830 الى 1962 ، والذي فقد معه الشعب الجزائري ارضه وسيادته وجميع ثرواته الوطنية ، جاءت اللغة الفرنسية الاجنبية لتحل محل اللغة الوطنية في الادارة والتعليم والحياة اليومية ، ولتلبس الشعب الجزائري ثقافته العربية الاسلامية ، وشخصيته القومية ، حتى تسهل عملية ادماجه النهائي في الامبراطورية الفرنسية .

وفي سنة 1938 ، اي قبل الحرب العالمية الثانية ، وبعد مرور اكثر من مائة عام على هذا النظام ، كان يعتقد ان عملية الادماج هذه قد نجحت نهائيا ، عندما كتب زعيم وطني جزائري ، عضو في البرلمان الفرنسي يومئذ ، يتساءل بحسن نية : هل توجد حقاقة جزائرية ؟ .

وبعد اعلان حرب التحرير الجزائرية سنة 1954 من طرف الشعب الابي ، اكتشف هذا الزعيم فجأة ظهور هذه الامة التي كان يبحث عن لغتها وثقافتها وشخصيتها الوطنية دون جدوى ، فارتدى بين احضان الثورة ليصبح اول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

وفي سنة 1962 كان اول عمل للجمهورية الجزائرية المستقلة هو استعادة سيادتها المطلقة والكاملة على الارض والثروات الوطنية الجزائرية ، اما العمل الثاني الذي شرعت فيه فور انتهائها من المرحلة الاولى فهو استعادة اللغة والثقافة الوطنية ولم تكن هذه القضية تحتل اية مناقشة ، رغم الصعوبات التي كانت تكتنف تطبيقها ، ذلك ان كل تطور ونمو للشخصية الجزائرية ، وكل تعليم ، وكل ثقافة وطنية ، يستحيل قيامها بغير اللغة العربية ، لغة المدرسة الحرة الاسلامية الجزائرية ، باعثة النهضة ، وشعلة الثورة ، ولغة تحرير الانسان الجزائري من العبودية والجهل والاستغلال .

يعني ان هذا الجيل لم يندمج اجتماعيا ونفسيا وتربويا في هذه المدرسة الاجنبية ، ولم تتكامل شخصيته الوطنية بواسطة لغتها ومناهجها واطرها الاجنبية ، وعندما شعر بانها لن تحقق اهدافه ومطامحه في التطور والتقدم ثار ضدها ، ووجد تجاوبا كاملا مع جميع المنظمات الملتغاشية التي تطالب معه بتعليم وطني كشرط اساسي لاصلاح التعليم .

وفي وصف هذه الحالة عقب الاضرابات المذكورة يقول مراسل جريدة « لومند » الباريسية : « كانت مطالب الطلبة ذات اهمية ، ولكنها لا تخرج عن النطاق الطلابي ، ورغم ذلك فان الرئيس تير انا قد وصل الى حد اغلاق الجامعة في شهر مارس 1971 بعدما طالبت الجمعيات بتعليم وطني ، وتخفيف برامج الدراسات والامتحانات ، وقد أصبحت المساعدات الثقافية الفرنسية بكاملها معرضة للنقد من طرف المنظمات التي تدّين التبعية الثقافية .

وبعد ان استعرض المراسل المذكور العوامل السياسية الاخرى التي تدعو اغلبية الشبان لاستنكار نظام الحكم الذي يعتبرونه شديد الارتباط بالاستعمار السابق ، اشار الى ان هذا لم يبد في الشعارات التي حملها الطلبة المتظاهرون يوم 24 ابريل الماضي حيث اكتفوا بشعارات كهذه : « معاهدات التعاون معاهدات استعباد » الفرنسية لغة الاستعباد .

وقد جاء في تصريح ادلى به لجريدة « لومند » ريموند وليام ريمونتجرا عضو الحركة الجمهورية الملتغاشية الحرة ، بعد ان تولى الجيش جميع السلطات ، حول مستقبل هذه الجمهورية ما يلي : « اما فيما يتعلق بمصير اللغة والثقافة الفرنسية فان للملتغاشيين كامل الحق في الدفاع عن لغتهم الاصلية ، وعن التراث الروحي والثقافي لاجدادهم ، ولكن من الواجب عليهم ايضا بالنظر للحاضر والمستقبل ، ان لا يعزلوا عن الفكر العالمي ، وداخل هذا النطاق ، سوف لا نفرط في كل ما هو فرنسي » .

هذا هو الموقف الصريح والعلني من قضية اللغة الاجنبية في بلد افريقي نام ، كان لا بد ان تمر اثنتا عشرة سنة على استقلاله قبل ان يلاحظ شعبه انعكاسات هذه التجربة المرة على حياته الاقتصادية والاجتماعية والقومية ، ويعلن سخطه وثورته ضدها .

ومن الجدير بالذكر انه عندما يطالب الطلبة في مدغشقر ، او في اي بلد افريقي آخر بتعليم وطني ،

للتعليم ، وكانت نقطة الصراع الوحيدة والمقطعة بمشاكل التعليم ، هي التي جاءت في هذه التوصية التي كانت محل اجماع أعضاء المناظرة ، وانتصر فيها ممثلو المؤسسات الوطنية الشعبية انتصارا ساحقا :

« لفة التعليم هي اللغة العربية في جميع المراحل الدراسية ، ويشعر في تعليم اللغات الاجنبية ابتداء من الطور الثانوي » .

وبعد مصادقة الجمع العام للمناظرة (400 ممثل) على هذه التوصية الصادرة عن « لجنة السياسة العامة للتعليم » تمكنت اللجان العشر الأخرى - بعد اسبوعين من العمل الجاد ليلا ونهارا - من اصدار توصياتها المتعلقة بالسياسة الوطنية العامة للتعليم .

وقد انعقدت مناظرة أخرى في افران للبحث عن اسباب الاضرابات ومحاولة ايجاد حل لها وأصدر المثقفون المغاربة بيانا تاريخيا وقعته 500 من الشخصيات المغربية في طليعتهم كبار العلماء ، وقادة الاحزاب الوطنية ، ونقابات العمال ، واتحادات الطلاب والاساتذة والمثقفون .

ومما جاء في هذا البيان ان الشعب المغربي لا يريد بعد تحرره واستقلاله ان يظل مربوطا بمجلة اية دولة أجنبية ، ويظل فكره القومي محتكرا للفتها ، وانما يريد ان يستوعب الحضارة الانسانية العالمية بمختلف لغاتها الحية ، وعن طريق التبادل الثقافي والعملي والصناعي ، دون ان يتخلى قيد انملة عن لفته العربية ، كلفة رسمية حية ، في التعليم والادارة والعمل اليومي ، فان علماء المغرب ومثقفيه ، ورجال الفكر والاصلاح فيه ، يرون من واجبههم القومي والديني بمناسبة الحوار المفتوح حول سياسة التعليم ومستقبله في المغرب :

اولا - ان يجددوا نصيحهم وتحذيرهم من اية سياسة لم تحقق غير المزيد من فرنسة الاجيال المغربية الناشئة ، وفرنسة لفة التخاطب العامة ، وترشيح فرنسة الادارة والمصالح العمومية والخصوصية بالمغرب المستقل ، مما يهدد وحدة وكيان ومستقبل الشعب المغربي ، ويعرقل تقدمه وازدهاره وامنه الفكري .

ثانيا - ان يذكروا بأن التعريب الكامل العام ، في التعليم والادارة والعمل والشارع هو مطلب قومي

لقد استفادت الجزائر منذ استقلالها سنة 1962 من تجربة المغرب السابقة في سياسة التعليم والتعريب منذ استقلاله سنة 1956 ، واستطاعت بفضل وضوح رؤيتها ، وبعد نظرها ، وعمق تجربتها ومحتتها في عهد الاحتلال ، ان تتجنب الاخطاء التي وقع فيها غيرها ، وان تقرر جعل اللغة العربية اداة علم وعمل في جميع قطاعات النشاط الوطني ، وادخالها الى الميادين العلمية والثقافية ، وخلق مدرسة جزائرية ذات صبغة قومية .

وقد تحدث الرئيس الجزائري هواري بومدين يوم 28 ابريل 1970 امام اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم عن التعريب بوصفه اختيارا اساسيا لا رجوع فيه ، فاكد بأنه مطلب وطني ، وهدف من الاهداف الكبرى بالنسبة للجماهير ، وقال : انه توجد بالجزائر نخبة وشعب وفي مثل هذه الحالة يجب على النخبة ان ترجع للشعب خاصة بالنسبة لهذا الموضوع ، لان الشعب هو الذي احتضن عبر القرون كل ما يمثل عنصرا اساسيا لما نسميه اليوم « بمقومات الشخصية الوطنية » .

وبهذا القرار التاريخي الحاسم ، فتحت الجزائر الباب على مصراعيه لتطبيق مبدأ تعميم التعليم ، ودمقراطيته ، ومحاربة الامية ، وتكوين الاطر الوطنية ، وخلق الوعي لدى الجماهير الشعبية بأهمية التدابير المتخذة في سياسة التصنيع ، والتطور الاقتصادي ، والاجتماعي ، والاصلاح الزراعي .

تجربة اللغة الاجنبية في المغرب

ومنذ استقلال المغرب سنة 1956 حتى اليوم، لم يحدث ان اجمعت الاحزاب الوطنية ، والنقابات العمالية ، واتحادات الطلاب ، والنقابات العمالية ، واتحادات الطلاب ، والمؤسسات العلمية والثقافية والدينية على مبدأ وطني مثل اجماعها على ضرورة استعمال اللغة العربية في التعليم والادارة والحياة اليومية بدل اللغة الفرنسية التي فرضتها الحماية في عهدها السابق .

ففي 13 ابريل 1964 قامت وزارة التعليم بتجربة عندما نظمت مناظرة وطنية كبرى حول التعليم دعت لها 400 شخص يمثلون جميع المؤسسات الحكومية والشعبية لوضع سياسة وطنية قسارة

معرفة ، وليس نتيجة للغة ، أما دعوى عزل الشعب عن تيارات الحضارة العالمية ، فهي مجرد خداع وتضليل للرأي العام الوطني .

3 - ان السكان يتسابقون ، حسب زعم هؤلاء ايضا ، لتسجيل ابنائهم في مدارس البعثات الاجنبية ، حرصا منهم على ان يتعلموا بلغتها ، والحقيقة هي ان طبقة من السكان المترفين اذا كانت تفر من مدارس الدولة الرسمية - وهذا لا يشرف اية حكومة بهذا الوضع - فليس ذلك لتعلقها اكثر باللغة الاجنبية ، ولكن لانها تخشى المصير التمس الذي ينتظر أبناء الشعب الذين يغادرون المدرسة دون ان يحصلوا حتى على شهادة الثانوية العامة .

4 - ان استعمال اللغة الاجنبية أصبح مرتبطا بالمصالح الاقتصادية والشفافية والسياسية للدولة صاحبة هذه اللغة ، وبمساعدهاتها المختلفة للدولة التي تستعمل لغتها ، ومن شأن التحول الى اللغة الوطنية ، حسبما يعتقد هؤلاء ، ان يسيء الى علاقات الدولتين ، والى مصالح المنتفعين فيهما ، وليس من شأن دولة غير ثورية ان تقوم على مثل هذه الخطوة الجريئة .

5 - ان استعمال اللغة الاجنبية قد يكون - فضلا عن الاسباب السابقة - لمجرد الحاجة ، لان الدولة المعنية لا تملك لغة علمية مكتوبة ، او بسبب الضغط الاستعماري المتواصل ، او فقط عبارة عن اختيار سياسي لتحقيق اهداف سياسة معينة ، فلما يقع الانتباه لها . او لان النخبة الحاكمة لا تزال تشعر بالنقص تجاه المستعمر القديم وتجاه لغته ، فهي لا تجرؤ على المس بالمؤسسات التي خلفها ، وكثيرا ما تجتمع اغلب هذه العوامل في البلد الواحد .

هذه ، على الاقل ، خلاصة الاسباب التي تجعل اغلبيه الدول الافريقية تتبنى اللغات الاجنبية ، دون ادراك واع منها بان هذا التبنى يشكل عقبة كبرى في طريق نمو شعوبها ، وتقدمها ، واستقلال طاقاتها البشرية .

الافارقة سيتخلصون عاجلا او آجلا من اللغات الاجنبية :

وهناك شعور متزايد لدى الرأي العام ، ولدى المؤسسات الوطنية في الاقطار الافريقية بان الدول الغريبة المستعمرة السابقة لها ، كانت تهتم بنشر

اجمعت عليه الامة منذ الاستقلال ، وهو لا يتعارض بحال من الاحوال مع دراسة اللغات الاجنبية الحية كلفات ، ولا يتناقض مع رغبتنا جميعا في التفتح على حضارة القرن العشرين ، وانما يؤكد فقط رغبة الشعب المغربي في المحافظة على مقومات شخصيته الوطنية ، ومن المعلوم انه لا يمكن لهذه الشخصية ان تنمو وتزدهر الا في اطار اللغة القومية ، ولا يمكن للتعليم ان يصبح شعبيا وديمقراطيا ومزدهرا الا باللغة القومية .

ثالثا - ان ينهوا الى التجني الذي يرتكب في حق اللغة العربية عندما يراد ربطها بالوضع الذي يوجد عليه العالم العربي اليوم ، وبالنقص السذي يلاحظ في المصطلحات العلمية الحديثة ، مع انه لا ينكر احد ان اللغة العربية كانت هي اللغة العلمية العالمية الوحيدة في العصور الاسلامية الزاهرة (القسرون الوسطى في اوربا) ، وان خلفها اليوم في ميدان المصطلحات الحديثة لا يرجع لعجزها هي ، بل لجمود المجتمعات العربية التي عليها ان تقوم بسد هذا النقص في الميدان اللغوي ، في نفس الوقت الذي تعمل فيه على سد نقصها في الميادين العلمية والصناعية ، ذلك ان اللغة العربية ، ككل اللغات الحية ، لا يمكن ان تتطور وتتقدم بمعزل عن الحياة والعلم والمجتمع ، وابعادها عن ان تكون لغة التعليم والادارة والعمل ، هي الطريق المفضية بها الى الموت البطيء ، لا الى الحياة الخالدة .

اسباب المحافظة على اللغات الاجنبية بافريقيا :

1 - ان اغلب المسؤولين والمشرفين على سياسة التخطيط يجهلون هم انفسهم لغتهم الوطنية ، لانهم تعلموا باللغة الاجنبية التي لا يزال نفوذها مستمرا بالرغم من استقلال بلدانهم ، وحيث انهم عاشوا في هذا الوضع ، واندمجوا فيه اداريا فهم يخشون اي تغيير قد يمس مصالحهم بسوء .

2 - ان عودة اللغة الوطنية لاحتلال مركزها الطبيعي كلفة رسمية للدولة سيؤدي حسبما يزعمه هؤلاء الى خلل في سير الادارة ، والى انخفاض المستوى في التعليم والتكوين ، والى عزل الشعب عن تيارات حضارة القرن العشرين . والواقع ان الخلل الاداري ، وانخفاض المستوى ، هما بعض ما تعانيه هذه البلدان ، بالرغم من استعمال اللغة الاجنبية ، لانها نتيجة لسلوك الرجل ومستوى

لغاتنا في هذه البلدان ، أكثر مما تهتم بتطورها أو نشر التعليم فيها ، وهذا الشعور تؤكد حتى اليوم الدراسات والمجلات التي تعني بهذا الموضوع .

ان تجارب الشعوب الافريقية مع اللغات الأجنبية أكدت بأن تبني هذه اللغة أو تلك من طرف نخبة قليلة من شعب افريقي لا يعني حصول هذا الشعب على تقدم أو تطور بفضلها ، فالشعب الجزائري ، مثلا ، الذي استمرت عملية فرنسته خلال 132 سنة من الاستعمار ، كان قد وصل أقصى درجة من الفقر والجهل والانحطاط قبل قيام ثورته المعجزة سنة 1954 ، وتجربة الشعوب الافريقية بعد الاستقلال ، سواء منها التي ورثت اللغة الانجليزية أو الفرنسية ، جعلتها تزداد اقتناعا بأن استعمال هذه اللغات لن يحل مشاكلها ، بل ربما خلق مشاكل جديدة لم تكن في الحسبان ، ولذلك فان الشعور الوطني العام يسير نحو التخلص من هذه اللغات التي اقترن تاريخها بالعبودية والاستغلال الاقتصادي .

ان هذا الاتجاه قد أدركه بذكاء المفتش العام للتعليم في فرنسا طابو « R. Thabault » الذي كان آخر مدير للتعليم في المغرب عندما قال : « .. كيفما كان سبب تبني الافارقة للفرنسية ، سواء كان اختيارا ، أو مجاملة ، أو مصلحة ، أو ضرورة ، فان هذا لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة تكاد تكون مجهولة في فرنسا ، وهي انه مهما كانت الصعوبات وعدم الملاءمة مع المشروعات ، فان الافارقة لهم رغبة جامحة في أن تكون لهم لغة خاصة بهم ، لغة افريقية مشتركة تعوض الفرنسية ، وفي الحقيقة فان التحول الى الاستقلال قلل من حدة هذه المشكلة ، بيد ان الجذور الاحساسية والعاطفية لهذه الرغبة عميقة جدا ، وتوشك المشكلة أن توضع بقوة من جديد في المستقبل » .

ونفس الفكرة عبر عنها بيير بورني (Pierre Burney) بالنسبة لدول المغرب العربي عندما قال : « كيفما كانت الاسباب التي حددت اختيار الفرنسية كلفة ثانية ، سواء التقاليد ، أو السهولة ، أو المصلحة ، أو المجاملة ، فان تعريبا تدريجيا للتعليم سيتم حتما » .

وقد لاحظ نفس الاتجاه في افريقيا الجنوبية الاساتذة لوكرائت ووليامس السابق ذكرهم قائلين : « .. ومع ذلك فانه يلاحظ في افريقيا الجنوبية انه يقع الالحاح بقوة على التعليم باللغة المحلية أكثر من

الانجليزية ، وهذا يعني ان التربية البانتوية (لغة البانتو) لا تعني فقط تلقين مواد ولكن أيضا وجود لغة معبرة » .

وعندما انعقد الملتقى الجامعي الاول حول الوحدة الافريقية بالجزائر في نهاية مارس 1971 ، أكد ما سجله الجميع على البيئة التربوية القائمة في القارة الافريقية المستقلة ، التي تتميز بظاهرة الاستلاب الثقافي ، أو التبعية الثقافية . وهذه التبعية جعلت أغلب المثقفين الافارقة لا يقدرون ثقافتهم الوطنية ، ولا يشعرون بالدور الذي يمكن أن تلعبه هذه الثقافة ، وانزالهم عن شعورهم لم يكن نتيجة لأفكارهم الجديدة فقط ، بل لانهم أيضا أصبحوا يتحدثون بلغة تختلف عن لغة شعوبهم » .

هذا الموقف الافريقي من اللغات الأجنبية الذي أدركه بوعي وتجربة خبراء أجانب في شؤون التعليم واللغات بافريقيا كالاستاذين طابو وبورني في سنة 1962 ، جاءت اضرابات الطلبة والتلاميذ لتؤكد بقوة في شعاراتها ضد التبعية الثقافية وسيطرة اللغة الفرنسية ، بينما غاب هذا الإدراك عن بعض السياسيين والمسؤولين الافارقة أنفسهم .

خلاصة :

ان تعلم اللغات الأجنبية وخاصة الانجليزية والفرنسية بالنسبة للطبقة الاجتماعية المتعلقة بالقارة الافريقية ، هو مطمح كل متعلم دون جدال ، ووسيلة ضرورية لاغناء الثقافات الوطنية ، وتكوين الاطر العلمية والتقنية الوطنية في سائر المجالات ، وتيسير التبادل العلمي والثقافي مع شعوب العالم المتقدم ، هذه هي الحقيقة الاولى التي لا يجادل فيها أحد .

ولكن اسلوب التعليم الذي فرضه الاستعمار الغربي على شعوب القارة ، كان يهدف بالدرجة الاولى الى نشر لغة الدولة المحتلة ، وفرضها كلفة رسمية في الادارة والتعليم ، وقد تبين لهذه الشعوب ، بعد التجربة المرة ، انه اسلوب خطير ، وان أقل اخطاره القضاء على الشخصية الوطنية ، وعلى الثقافة والقيم التاريخية والدينية ، وعرقلة كل تقدم وازدهار حقيقي للشعب ، واخضاعه باستمرار لتبعية الدولة التي يفكر ويتكلم بلغتها ، وهذه هي الحقيقة الثانية التي بدأت هذه الشعوب تدركها .

ومن خلال التجارب الافريقية اتسعت المعرفة، وازداد اليقين بحقيقة علمية ، وهي ان الاطفال الذين يدرسون بلغة أجنبية ، تختلف عن لغة الامومة - وخاصة اصحاب الذكاء العادي وهم الاغلبية الساحقة - لا يتقدمون فى دراساتهم الا ببطء وبشدة هذا البطء اذا فرض عليهم التعلم باللغة الأجنبية ، وباللغة الفصحى الام للغة الامومة ، او بلفتين أجنبيتين عن لغة الامومة وهذه هي الحقيقة الثالثة .

وقد برهنت الحركات التقدمية او الثورية التي تغلغلت فى القارة الافريقية على ان دوافعها الاساسية لا تخرج عن النطاق الوطني الذي يستهدف النمو وتقدم الانسان الافريقي ، وتحريره من كل انواع العبودية

واعتناق بعض الحركات للشوعية نفسه ليس اجتهدا فكريا متأثرا بالدعاية الأجنبية ، بقدر ما هو عبارة عن رد فعل اجتماعي قوي للتحالف مع أية قوة خارجية ضد الحكم الذي لا يخدم مصالح الشعب ، وما دام هذا الحكم يؤثر عليها مصالح المستعمر السابق ، ويدعم لفته وثقافته على حساب اللغة والثقافة الوطنية ، فان التيار العام ، وخاصة لدى الطبقة المتعلمة - سيزداد اتساعا وعنفا ضد هذه السياسة وضد اصحابها ، وسيعمل على التخلص من هذه اللغات فى التعليم والادارة عاجلا او آجلا ، وهذه هي الحقيقة الرابعة التي نستخلصها فى النهاية من هذا العرض .

ألقاب الصوفية فى المشرق :

الاولى : المجلس العالي يكتب بها لشيخ الشيوخ بالديار المصرية
وهي المجلس العالي الشيخي الكبيرى العالمى العاملى السالكى
.. الخ

المرتبة الثانية : المجلس الساميتى (بالياء)

المرتبة الثالثة : المجلس السامري (بغير ياء)

المرتبة الرابعة : مجلس الشيخ (صبح الاعشى ج 11 ص 85)

تنقل الألفاظ

الأستاذ عبد الهادي الفضلي
كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز

الجواليقي ومغرب المطرزي وشفاء الخفاجي والألفاظ الفارسية المعربة لادي شير الكلداني ، وتوفرت جملة أخرى منها على التعريف بالكلمات العربية التي استعجمت كقاموس دوزي المستشرق الهولندي الذي جمع فيه المفردات العربية التي دخلت الإسبانية والبرتغالية و (الكلمات العربية في اللغة البرتغالية) لجورج ليان و (الكلمات العربية الشائعة في اللغة الانكليزية) لجرجيس فتح الله المنشورة بمجلة المجمع العلمي العراقي .

والفرق بين ظاهرة الاستعجم - واعني بها دخول الكلمة العربية الى اللغات الأخرى - وظاهرة الاستعراب - وهي دخول الكلمة غير العربية الى العربية - وبين ظاهرة التنقل في مجال الدراسة والبحث ومجال التدوين المعجمي واضح لا يتطلب فيما اعتقد أي شيء من التوضيح .

والفرق في مجال الاستثمار الدراسي هو المهم هنا - فيما اخل - ذلك ان دراسة الدخيل لا تكشف لنا في الغالب الا عن مجال من مجالات الكلمة قبل دخولها العربية قد يكون الاصل وقد يكون غيره . ودراسة الاستعجم هي الأخرى قد لا توقفنا على أكثر من مجال دخاته الكلمة العربية .

قد تعد ظاهرة تنقل الألفاظ من أبرز الظواهر اللغوية الاجتماعية لشيوعها بين مختلف اللغات ، وبخاصة اللغات الحية منها ، وفي كثير من المجتمعات ، وفي شتى انماط لغاتها من فصيحة وعامية .

وهي : تعني تنقل الكلمة من لغتها الاصل الى أكثر من لغة ، ومن مجتمعها الأم الى أكثر من مجتمع .

وتنشأ تلقائيا كأي ظاهرة اجتماعية أخرى ، وذلك بسبب الاتصال الحضاري عن طريق الترجمات ونقل المعارف وبسبب الاتصال الاجتماعي عن طريق الاسفار والهجرة .

ويفاد من دراستها وبحثها في التعرف على تاريخ الكلمة في نشأتها وتطورها وتغيرات هيئتها وتقلبات مضمونها .

وقد توفرت جملة من معجمات بعض اللغات على التعريف بها كالانكليزية في مثل Webster's (International Dictionary وكالفارسية في (فرهنك نفيسي) . غير اننا لا نجد مثل هذه المعجمات في اللغة العربية مع توفر جملة من معجماتها على التعريف بالدخيل أمثال : معرب

اما فى دراسة تنقل الالفاظ فمجالات الافادة كثيرة ، منها ما ألحت اليه اعلاه ، ومنها الكشف عن قابلية الاستيعاب فى لفتنا وقوة الهضم والتمثيل وسعة التفاعل مع اللغات الاخرى اخذا وعطاء مما يجعلها مرتفعة الى مصاف اللغات الحية المنة ، التى اكتسبت صفة التقدم نتيجة التأثير والتأثر والتبادل اخذا وعطاء .

ولعلنا فى ضوء ما نراه من توسع كبير فى الدراسات اللغوية المقارنة يجعلنا نتوقع صدور مثل هذا المعجم الذى يعنى بتاريخ الكلمة العربية المستعربة او العربية عن قريب باذن الله تعالى .

وكامثلة اضع بين يدي القاريء الكريم اضمامة صغيرة من الكلمات العربية المنقولة التى أفدتها من بعض المعاجم الانكليزية وبخاصة المعجم المذكور اعلاه ، وبمساعدة زميلي السيد جورج يول George Yule استاذ اللغة الانكليزية بكلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز الذى يسر لي كثيرا مهمة الرجوع الى المعاجم الانكليزية . والكلمات هي :

- 1 - موسيقى Music - اليونانية .
اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .
- 2 - مفناطيس Magnat - اليونانية .
اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .
- 3 - كريستال Crystal - اليونانية .
اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . العربية .
- 4 - نرجس Narcissus - اليونانية .
اللاتينية . الانكليزية . الفارسية . العربية .
- 5 - بوليس Police - اليونانية .
اللاتينية . الفرنسية . الانكليزية . الفارسية .
العربية .
- 6 - كلية College - اللاتينية .
الفرنسية . الانكليزية . العربية .
- 7 - بروفيسور Professor - اللاتينية .
الفرنسية . الانكليزية . العربية .
- 8 - ليمون Lemon - اللاتينية . الفرنسية .
الانكليزية . العربية . الفارسية .
- 9 - صراط Street - اللاتينية .
الامانية القديمة . الانكليزية القديمة . العربية
القديمة .

10 - امبراطور Emperor - اللاتينية .
الفرنسية . الانكليزية . العربية .

11 - بنك Bank - الإيطالية القديمة .
الفرنسية . الانكليزية . الفارسية . العربية .

12 - كاش Cash - اللاتينية . الإيطالية .
الانكليزية . العربية .

13 - بلاتين Platinum - الإسبانية .
الانكليزية . العربية .

14 - ماركة Mark - الألمانية . الانكليزية .
العربية .

وكنموذج تطبيقي نأخذ مثالا واحدا من الكلمات العربيات المنقولة ، هو كلمة (كعك Cake) العربية عن الفارسية ، وهي من العرب القديم الذى يمتد فى تاريخه الى اوائل العصر العباسي .

فاننا عندما نرجع الى تاريخها فى لفظها الانكليزي (كيك Cake) نجد انها انتقلت من اللغة النرويجية القديمة الى اللغة الالمانية القديمة ، ومن الالمانية القديمة انتقلت الى اللغة الانكليزية ، ومن الانكليزية انتقلت الى العربية بلفظها الانكليزي (Cake) وراحت تستعمل الى جانب لفظها السابق العربى عن الفارسية (كعك) وفى معنى آخر يشبه معناها السابق .

وهذا الاختلاف جاءها - فيما أخال - من انها سلكت فى دخولها الى اللغة العربية طريقتين : طريق الفارسية قديما وطريق الانكليزية حديثا ، واخضعت فى اولها الى اصول التعريب فتحولت الى (كعك) ، بينما لم تخضع فى ثانيهما الى تلكم الاصول فبقيت على لفظها الأعجمي (كيك) ، وربما عاد ذلك الى التفرقة بين معنيي استعمالها والى ضعف الالتزام بأصول التعريب .

وفى ختام حديثي هذا اعود فاقول : ان هذه الظاهرة تتطلب كثيرا من العناية فى دراساتها اللغوية وبخاصة المعجمية منها لما ستلقيه من الاضواء على الكثير من المسائل والقضايا اللغوية بمختلف حقول اللغة وفروعها .

مَظَاهِرُ التَّعْرِيبِ

الأستاذ محمد بن تاووت

أما إبدال تلك الهاء « المخفي » كما يسميها
الفرس ، قافا ، فذلك ما كان مطردا في العربية ، كما
كان مطردا أيضا إبدالها جيما ، كما في كلمة « برنام »
التي أصبحت برنامج ، وقد عقد سيبويه في كتابه
فصلا سماه « باب اطراد الإبدال في الفارسية » فذكر
من هذا كونه وموزة وكربق وقربق ، إلى غير ذلك من
الكلمات ، التي يكتفي فيها بهذا الحذاء العربي في
نهايتها ، أعني الجيم أو القاف .

وطبعا انهم لا يقبلون الحروف التي لا
يستعملونها ولا يألّفون اجراسها ، فالحرف P
ينقلب باء أو فاء ، والحرف G ينقلب جيما غالبا ،
والحرف V ينقلب واوا في الغالب كذلك .

وبعد هذا لابد من انسجام في الهيئة والامتداد ،
فتبدل بعض الحركات بغيرها أو تحذف بعض
الحروف التي تتعدى الكلمة طورها في العربية ،
ان لم تحذف منها تلك الحروف ، في الغالب أيضا ،
ولم يتحموا هذا للاضطراب ، بل أخذوا كلمة « جلاب »
وهي ماء الورد .

وهكذا كانت مشكلة التعريب في القديم ،
مسألة التعليم بمدولنا ، ولم تكن مشكلة التعريب كما
فهمنا ، فالقضية تهذيب لفظي بوسائل في غاية
البساطة .

لما ترجمت العلوم إلى العربية ، اتخذ فيها ما
كان مهودا من ذي قبل ، فقيّل ، فلسفة في

كثيرا ما قلنا ان التعريب كان منصبا على
الانفاظ ، بينما التعريب الآن منصب على المعاني
فما معنى هذا الكلام ؟

معناه ان العربي ، كان اذا جلب كلمة أو جلبت
إليه ، يستغني بالباسها لباسه العربي ولو بغطاء
الراس مثلا أو الحذاء

جاءته كلمة « كروان » بمعنى انقافلة ، فقال
فيها قروان ، وغطى رأسها بالالف واللام فأصبحت
القروان أو القيروان ، وبذلك صارت الكلمة تتمتع
بكل الحقوق التي تتمتع بها الكلمة العربية في
إعرابها ، فلا تمنع من الصرف لعلّة المعجمة ، لأنها
قد ارتفعت عنها بهذا العقال ، الذي هو هنا الالف
واللام ، كما حدث في الهند والصين والروم والترك .

سمع النبي عليه الصلاة والسلام ، من سلمان
الفارسي ، كلمة خندق فاستفسره عن معناها ، وهي
اسم مفعول ، من كندن الفارسي بمعنى الحفر ،
فكانت كنده ، وعربت بأن أبدلت الهاء التي لا تنطق
قافا ، فصارت خندق ، فتقبلها النبي ولم يأنف من
استعمالها بل اشتق منها خندقوا ، فسميت
الغزوة بغزوة الخندق .

ولعل الكاف كانت في النطق تميل إلى الخاء ،
كما هي في اليونانية والعبرية ، وهي ما تسمى عند
مقرئي المغرب بالكاف الموسوس ، ولهذا نطقت خندق .

كل ما فى طاقتها من قوة فهل العربية قادرة على هذا ؟

نعم ، هي قادرة . لو مكنها من قدرتها ، ونفسها بطول الانفاس ، ان لم نكتبه فيها .

والعربية ، الى جانب احتمالها للالفاظ ، تحتل كذلك ما نطلبه من معان فيها ، ان كلماتها لا تنفذ . بما فيها من اشتقاق وخيالها بحمد الله خيال خصب ، يسعها بالتشبيه وما ينشأ عنه من استعارات ، ويسعها بهذا التداعي الذى تتولد منه الكنايات ، ولا يبخل عليها استعمالها العتيق ، بهذه المجازات المرسله ، ثم النحت .

لقد تقدمت فى الاشتقاق ، كلمة « خندقوا » من الخندق ، ولنا ان نزيد على هذه الصيغة كل الصيغ المعروفة فى المادة العربية نفسها ، فتسعنا فى الاعمال بأنواعها وأوضاعها ، وتسعنا فى الصفات بأنواعها كذلك وأوضاعها ، وتسعنا فى أسماء الزمان والمكان والمصادر على اختلافها ، كما تسعنا الكلمة العربية ، عند الاحتياج الى نسلها من اولاد واحفاد

هذا الاشتقاق الطليق ، لا نجده فى غير العربية ونجد امثلة من البواقي فى غيرها ، مثل ما نجد فى الفارسية والتركية والفرنسية ، ازاء البطاطا ، حيث شبهتها جميعا بالتفاح الذى اضافته الى الارض ، فقالت الفارسية « سيب زمين » والتركية « ير الماسي » والفرنسية *Pomme de terre*

وسمت الاسبانية ملابس العمال ، ذات القطعة الواحدة « Mono » أي قرد ، كما سمت الآلة التى ترفع بها جوانب السيارة باسم « Gato » أي الهر ، لانها تنشب مخلبها فى جانب السيارة ولم تأنف ان تسمى بالبق « Chinche » المسمرات التى تثبت الورق ونحوه .

وقالت الانجليزية للقطار السائر تحت الارض *Underground* أي تحت الارض ، مجازا مرسلًا ، كما استعمل هذا المجاز المرسل فى نحو « سندويتش » « Sandwich » و« كرافات » « Cravate » وكان الاصل فى هذين انهما اسمان لرجلين استعملهما .

وأمن الالمان ، كما نعمن نحن فى الاشياء لنستخرج اسماءها ، بدقة وطبق الاصل ، فسموا « الهيدروجين » باسم *Wasserstoff*

Philosophia وفيلسوف *Philosophos* وقيل ، فاطيفورية *Kategoria* والسفسطة *Sofistikae* وايساغوجي *Isagoge* وغير ذلك من الكلمات اليونانية الاصل ، ولم تجد العربية الفسيحة الصدر فى هذا حرجا او احراجا ، وقد وجدنا الابهرى من رجال القرن السابع يؤلف فى المنطق رسالته « ايساغوجي »

Taos	كما عربوا الطوس من
Zone	والزنار من
Kassitoros	والقزدير من
Ibrizón	والابريز من
Diáblos	وابليس من
Thériaka	والترياق من
Chartés	والقرطاس من
Genos	والجنس من
Esthlós	والانسر من
Gramaatika	والاجرومية من
Asfaltos	والزفت من
Karyofyllon	والقرنفل من
Gypsos	والجبص من
Staflinos	واصفليانة من
Sotolos	والاسطول من
Astron-lambauo	واسطرلاب من
Drachmé	والدرهم من
Kados	والقادوس من
Atlas	والاطلس من

ولا شك ان كلمات من هذه عرفتها الجاهلية ، كالقرنفل والدرهم وابليس ، ولكن معظمها لم يعرف الا عند الترجمة ، ولا يعزب عن البال ، ان كلمة الاجرومية ، ليست منسوبة الى ابن آجروم المغربي ، كما يتوهم ، فان القضية اتفاقية ، وكثيرا ما يقع هذا الاتفاق فى اللغات .

هذه امثلة بسيطة ، اذا كانت الحياة على نمط من البساطة ، اما الآن فقد تعقدت الحياة وتعاقبت المخترعات وازدحمت فى هذه الدنيا المخلوقات ، فأصبحت وكأنها دار تسكنها عائلة واحدة ، لابد من التعارف التام فيها والاتحاد فى مدلولاتها ومزاولة كل فرد منها ما يزاوله الآخر

فصارت مسؤولية اللغة شاقة ومتطلباتها كثيرة ، وعليها ان تقوم بأعباء ذلك وعليها ان تستنفد

يتصل بالوصف ، وتسجيل خطوات اللفظ . وموقفها من طبيعة الأشياء ، فكان منها بعض اللمحات عن موضوعنا هذا ، مثل « باب الحكاية التي لا تغير فيها الأسماء عن حالها » فالتركيب إذن معروف بين كلمتين عند النحاة ، قديما وحديثا .

أما النحت بهذا الاسم فقليلا ما يتعرض له النحويون . ومن هؤلاء الخضري ، اذ يقول فيه « وهو ان يختصر من كلمتين فأكثر ، كلمة واحدة ، ولا يشترط فيه حفظ الكلمة الاولى بتمامها بالاستقراء ، خلافا لبعضهم ، ولا الاخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات » .

وبهذا نعم كلمة النحت في تركيب الكلمة من كلمتين وفي اختصار كلمة من كلمتين أو أكثر ، والنوعان معا موجودان في العربية ، وفي جل اللغات غيرها ، وان كان بعض منها يميل الى التركيب أكثر مما يميل الى الاختصار ، على عكس العربية . كما سنرى :

تقول العربية « السمعة » و « الحملة » و « السبحة » و « الحوقلة » و « السمعة » ، من قولنا : « بسم الله » و « الحمد لله » و « سبحان الله » ولا حول ولا قوة الا بالله » و « السلام عليكم » ، كما تقول « الهيلة » و « الحيلة » . ويزعم ابن فارس ان كل ما زاد على ثلاثة ففيه نحت وتقول « التحييد » كما نقول غير هذا من جمل عديدة ، ونشتق من ذلك الافعال وغيرها مما يشتق من كل مصدر ، وهذا أيضا مما تمتاز به العربية وتفضل على غيرها ، فان باقي اللغات ، تستعمل هذا النحت في حالة معينة ، تستوجب منها هذه العملية ، وتقف عند هذا الحد ولا تتعداه غالبا فهي في ذلك تلتزم ما التزم - غالبا - في أسماء الأفعال والأصوات من العربية ، وهذا الباب أيضا ، مما توسعت فيه العربية ، بخلاف غيرها .

مثلا ، نجد الألمانية تمنح في حقائق الأشياء ، وتحاول ، مثلنا ، ما أمكنتها الحيلة ، ان تدخل المعاني الى لغتها ولا تدخل اليها الالفاظ ، سواء منها ما كان مفردا وما كان مركبا ، فمن المفردات ، نجد كلمة التاريخ ، غير مستعملة عندها ، كما هي في باقي اللغات الأوروبية ، بل اشتقت لها من مادتها الألمانية كلمة سرد Geschichte ولكن المؤرخ Historiker والوصف hietorisch فهي إذن لم تبق حرة طليقة وكذا الامر في المركبات ،

فركبوا الاسم من كلمتين Stoff اي جوهر ، و Wasser اي ماء ، فصار الاسم هكذا ، الجوهر المائي ، او جوهر الماء (كما في الفارسية والتركية مولد الماء)

وقد كلفهم هذا الاعتزاز كثيرا من العنت . اضطروا معه ، الى تركيب اسم لسمى واحد من كلمتين أو كلمات ، في بعض الاحيان ، فلا يكتفون غالبا بالنحت ، الذي نجده في جل اللغات ، ومنها العربية .

وقبل ان ناتي بأمثلة من العربية لهذا النحت نرى ان نقف وقفة قصيرة ، عند أصله اللغوي . .

فالنحت أصله ، النشر والشر والقطع في الصلب من المواد ، كالخشب والحجر ونحوهما . وقد يكون هذا من كلمتين ، كما ينحت النجار ، خشبتين ويجعلهما قطعة واحدة ، كما يكون من قطعة واحدة ، وهو الأصل ، كالنحيتة التي تنحت من جذم شجرة ، على هيئة الجب للنحل ، وهذه النحيتة هي المعروفة عندنا باسم الجباح ، ومن هذا قول الأعشى :

الست منتبيا عن نحت أثلتنا

ولست ضائرها ما اطت الابل

أما النحت في الحجر ، فمنه قوله تعالى « وتنتحون من الجبال بيوتا فريين »

هذا ما يتعلق ، بأصل المادة من اللفظ .

وأما معنى النحت في الاصطلاح ، فهو صوغ كلمة من كلمتين فأكثر .

ويدخل في هذا التعريف ، تركيب كلمة من كلمتين ، مما تناوله النحاة ، في عدة أبواب من كتبهم . وفي الألفية نجد التعرض للتركيب المزجي ، في باب العلم ، وباب ما لا ينصرف ، وباب النسب ، كما نجد الإشارة الى المركبات عامة في أبواب غير هذه .

وجملة القول ان النحو تعرض للمركبات من الأسماء الا ان تعرضه هذا كان لمجرد الأحكام النحوية والصرفية الواجب تطبيقها عليها في الجملة .

نعم ان « الكتاب » لسبويه لم يقف عند تطبيق الأحكام ، بل وقف عدة وقفات ، كان منها ما

فهي في التصريف والنحو، وضربنا لذلك امثلة باللفات الاجنبية ، وهي تعم الجميع .

ومن تلك الامثلة ، ادركنا انه لا حدود فاصلة تامة بين النوعين المذكورين ، فقد تدعو الضرورة ، فلا تجد من يسعها الا وسائل الترف ، وقد لا تكون هناك ضرورة ، ومع هذا تستعمل وسائلها . وبذلك ينشأ المترادف ، كما ينشأ بالترف والمغرب وتعدد اللهجات . ومن المفيد أن تأتي ببعض الامثلة التي هي في العربية مقابلة لتلك التي ذكرناها من غيرها .

فمن الاضافة وجدنا قوس قزح واكسير الحياة ، وحب العزيز في مصر ، وحب الملوك في المغرب ، ودار الصنعة ، وبيت المال ، ودار الثقافة بالمغرب . ومن النسب : اليماني والهندي في الفصحى ، وفي معناه الجديد في عاميتنا ، كالكومية والوزانية فيها ، والمهلبية بالشرق والمنصورية بالمغرب ومن الاشتقاق ، كالنشيرة ، بمعنى ما يعرف الآن باسم « الفاتورة » ويصح ان نضع فيها « النفالة » ايضا ، وكلتاهما للمفعولية والاخيرة « النفولة » . ومن الاستعارة كيد الدهر ، ورأس الكلام ، ومرآة الحياة ، وشباب الزمان ، ولحن السعادة ، ودمدمة الشقاوة ، و « طعام الائم » و « العزيز الكريم » تهكما . ومن المجاز المرسل ، شرب الكأس ، (ولا بأس بالجرسى Jersey) والتكلم مع الدار ، وجعل الاصابع في الاذن وعصر الخمر ، والبرتقال للفاكهة المعروفة ، ومن الكناية اهل الحجر والمدر والوبر ، وبيت الماء ، واهل الدار ، وعريض القفا ، للحمار ، كما في حديث من فهم الخيط الابيض والاسود على الحقيقة ، وريق النحل ، والتكفف وخفة اليد ... اما التشبيه ، على ما هو عليه ، فلا وجود له ، فيما نعلم بالعربية ، ولكن خليل التركي استعمله كثيرا ، في مختصره المعروف ، وقلما يخلو منه باب من ابوابه ، وهذه امثلة قليلة من ذلك : « بكاعزى » في اليمين ، « في كسبيل الله » بالنذر « من كقاعد » في الجهاد ، « في كافريقية » بالنكاح « لا بكاعتراض » في الخيار منه ، « من كابل » في الصداق ، « عند كامها » في نكاح التفويض ، « علي كجدار » في وليمة البناء بالعروس ، « ولو بكتقوم » في الطلاق ، « وان بكاحرام » في الارتجاع ، و « بكمشيئها » في الظهار ، و « وفي كالثلاثة » - الايام ، وفي التطوع او غيره ان خرج - « لكرباط » فهذان مثالان وردا في رفع زوجة المفقود ، و « نبذ بكدباء »

وتقدم انها سمت « الهيدروجين » باسم اصل الماء او جوهر الماء ، هكذا Wasserstoff ماء Wasser ومادة Stoff مركبين وهي في هذا قد استعانت بأصل الكلمة اليونانية hudór أي ماء ، و gen أي اصل من مصدر genna-ein فحلت مشكلتها ووقفت عند هذا الحد بالرغم من أن لها في لغتها روافد عديدة ، حيث انها تحتوي على عدة لهجات تفنيها عن غيرها غالبا .

ومهما يكن ، فاننا بصدد العربية ، وموقفها من عملية النحت الذي عرفه ابن فارس بقوله « تؤخذ كلمتان وتنحت منها كلمة آخذة منهما جميعا » فقد رأينا انها تجمع بين الطريقتين فيه ، والقدامى حاولوا احصاء المنحوت في العربية ، فوقف بعضهم عند بضعة عشر من امثلته ، وآخرون لم يتعدوا او لم يصابوا بها الى المائة .

غير ان ابن فارس جرى بعملية النحت اشواطاً قارب بها نحو الألف ، حيث يرى ان أكثر الرباعي والخماسي منحوت من كلمتين .

والواقع ان هذا العدد لا يعيننا بقدر ما يمكننا من الحرية في عملية النحت ، الذي أصبحت الحياة المعقدة تاج علينا فيه ، وأصبحت الاجناس البشرية ، تتقارب فيما بينها وتكون لها مجتمعات على مستوى الدول عامة او على مستوى جماعة منها او على فكرة من الافكار ، بعد المخترعات العديدة ، التي قد تتطلب مئات الاشياء وآلاف الأدوات ، وكل ذلك لابد من تسميته مركبا بعد ان كان مسمى مفككا او على افراد اجزائه ، فكان الاتوموبيل والتيليفون والتلفزيون ثم التلفزيون والنيلون ، هذه الاشياء تعد من أبسط ما واجهنا به النحت ، كما واجهنا بالديموقراطية والديكتاتورية والنازية ونحوها ، وكانت اليونسكو والمخترعات الكيماوية مما وجدت لها حلا في اللغات ، فكيف بنا الآن أمام المخترعات الفضائية التي تتألف من مئات الاشياء وآلافها ؟

وعلى كل حال فاننا من استعراضنا للوسائل التي تستعملها العربية في تعبيرها ، وجدنا منها ما استعمل ترفا ، كالتشبيه والمجاز عموما وكالكناية ، وما استعمل بداعي الحاجة ، كالاضافة والنسب والاشتقاق الذي يطبق على هذه جميعا ، كما يطبق على غيرها فيما سنرى وعلى العموم فقد دخلت الاولى في منطقة تجميل الكلام ، وهي « فن البلاغة » ، ودخلت الباقية في ضروريات الكلام ،

في الطعام الباح ، وهو كثير جدا . ويكلف الشراح تأويلا يدعونه بحذف المنعوت والواقع ، ان الصنيع التركي ، هو الذي شجع هذا التركي العظيم على استعماله ، المذكور ، وهو الذي جعل شوقي التركي يقول :

ودخلت في ليلين فرحك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

فهذا التشبيه « كالمنور » هو المفعول به على الحقيقة ، كما ان ما قام مقامه ، في قوله : « ما يشبه الاحلام » هو الفاعل في البيت :

يا جارة الوادي طربت وعادني
« ما يشبه الاحلام » من ذكراك

وكذلك نجد لشوقي هذا الصنيع في نحو قوله :

ولا ينبيك عن خلق الليالي
كمن فقد الأحبة والصحابا

فقد جعل الفاعل هنا ، المشبه به أداة التشبيه ، ولا شك انه نظر في ذلك الى قوله تعالى : « ولا ينبئك مثل خبير » .

فالفاعل في الواقع المشبه به أداة التشبيه « مثل » اذ هي في المعنى لا تستقل بنفسها ، وان كانت في الصناعة فاعلا بنفسها ، مما اهلها في التركيب العربي ، لما لم تؤهل له كاف التشبيه .

ولكن غير شوقي و خليل ، ان احتاج الى هذا التشبيه ، احتال عليه ، فقال : « ذهب الاميل » و « لجين الماء » و « حمار الشيخ » ونحو ذلك ، مما اضيف فيه المشبه الى المشبه ، وقد استعمله جدا ، ابن خفاجة ، زيادة على الصورتين الاوليين خصوصا في قصيدة له مطلعها :

يا رب ليل بته
وكانه من وصف شعرك

ومن الوسائل التي تتوسع بها اللغات في دلالاتها ، وسيلة التعميم والتخصيص ، فالخاص يستعمل في المعنى العام والعام يستعمل في المعنى الخاص .

وقد تنبه الاصوليون وعلى رأسهم الشافعي الى هذا في النصوص الشرعية بصفة خاصة ، الا انهم توسعوا فيه ، حيث كان قصدهم مناط الاحكام ، ولم

يكن مناط الدلالات ، بمعنى انهم اقرؤا بعض العمومات في دلالاتها اللغوية وان خصصوها في احكامها الفقهية ، فجاءتها هذه الخصوصية بنحو الاستثناء الذي اجاز فيه ابو حنيفة وغيره ان يتأخر عن المستثنى منه بمدة السنوات ، او نحو الصفات التي تقصر الاحكام على موصوفاتها ، وهكذا مما يطول الكلام فيه ، وحسبنا ان نجد له نماذج في باب اليمين بمختصر خليل عند قوله « وخصمت نية الحالف وقيدت » الى آخر الباب وفيه ايضا تعميم للخصوص والعام الذي اريد به الخصوص وهو الغالب .

ثم كان انبلاغيون والمناطقة يعالجون هذا النوع من التوسع ، فالبلأغيون حينما امعنوا في المجازات المرسله وجدوا من نماذج ما يتصل بهذا المجاز ، لدرجة ان نشأ الخلاف بين الاصوليين فيه ، هل هو جميعا من قبيل المجاز هذا ؟ والمناطقة نظروا اليه وهو يقوم بمهمة الدلالة اللغوية ، فكان تناولهم فقهاء لغويا في الصميم ، كما نجد في السلم اذ يقول :

دلالة اللفظ على ما وافقه
يدعونها دلالة المطابقة
وجزئه تضمننا وما لزم
فهو التزام ان بعقل انتم

وقد توسع فقه اللغة الحديث في هذه الدلالات وساط عليها الاستقراء التاريخي والتطور الاجتماعي والجنسي وهي على كل حال خاضعة لهذا الحصر المنطقي .

ومهما يكن فالعربية عرفت في الجاهلية هذه النماذج التي تتراوح بين التخصيص والتعميم ، وتوسع فيها الاسلام فالشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والطهارة والوضوء والكفر والايمان والشرك والجهاد والتكبير والتحميد والركوع والسجود وغير هذه من مئات الكلمات التي جددت دلالاتها في الدين الجديد ، كلها من هذا القبيل .

وقد الف الراغب الاصفهاني كتابه القيم « مفردات غريب القرآن » فأرجع هذه المفردات الى عموماتها او خصوصاتها في اصل الاستعمال اللغوي ، الذي لم يقطع الاستعمال الجديد في الاسلام صلاته بالقديم فيها .

فهذه الصلاة والزكاة والطهارة ، نجدها في آية واحدة تمد يدها الى عمومها فتقول « خذ من أموالهم

صدقة تطهرهم وتزكّهم بها وصل عليهم ، ان صلواتك سكن لهم » .

والكفر نجده يستعمل في معناه من الستر ، فعم الزراع لسترهم البدور ، ولهذا وردت الآية « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » أي الزراع ، ومن هذا الستر تكفير السيئات الذي ورد منه في القرآن عشرات من الآيات ، مثل « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » ومثل « ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا » ومن العجيب ان نجد هذا الستر في الكلمة باللفات الاوربية ، في مثل Cover الانجليزى و Cubrir الاسباني ونحو ذلك في اللغات الآخذة من اللاتينية كالإيطالية والرومانية وغيرهما .

ومن الكلمات التي صارت تنجح الى التخصص كلمة الانتقاد ، فهي كذلك في العربية وكذلك اختها Critic في غيرها وهكذا العربية استفادت من التخصص في عصرنا ، كما نجد ذلك في تسمياتها الطائرة والدبابة والقوامة والعمامة والمدمرة والمدفع والحافلة والشاحنة والجرار والجراف والسيارة والدراجة والاسعاف والامن والنظام والاستقرار والمخبر والساعي والنجدة والانتقاد والامين والشوكة والسكينة ، وغير هذه مما يجد باطراد مستمر ، وقد يشتق من بعض هذه ، كالطيار والمطار ، كما اشتق من المطبعة الطباعة وغيرها .

فهذه كلها معان جديدة ولدتها أم التخصص لهذه العربية ، ولا أفهم مطلقا من يقولون ان دلالات الالفاظ في العربية لم يطرا عليها تغيير فهذه القولة تسيء الى العربية ولا تشيد بفضلها .

بل ان التطور في الدلالة ، حاصل حتى في هذا المتخصص . وهذه الكلمة نفسها ، وقد جاءت عفوا في عبارتنا تطورت في مدلولها عما كانت عليه بالامس ، فكلمة « المتخصص » الآن لها مدلول لم يكن يعرف على ما هو عليه عندنا ، فهذا متخصص في فقه اللغة العام وهذا في فقه اللغة الخاص ، بالمقارنات او الاشتقاقات او التاريخيات او ما الى ذلك من نوع الدراسات اللغوية وهذا متخصص في امراض الكلى وآخر في لسن العظام وآخر في الجهاز الهضمي او البولي او السمعى او التنفسي او ما الى ذلك من الاجهزة الكثيرة ، زيادة على التخصص في الانسان والعيون ، مما اصبح مستقلا بنفسه تمام الاستقلال ، وسيأتي يوم يتخصص فيه طبيب الانسان بالفك الاعلى ، وآخر بالفك الاسفل ، وطبيب العيون ، بالعين اليمنى وآخر بالعين اليسرى ، وطبيب الآن كذلك .

نعود الى هذا العام الذي خصص في غير العربية ، لنقارن بين طبيعة المتخصص في العربية والمتخصص في غيرها فكلمة Avion في الاسبانية وغيرها ، وكلمة Aviación فيها وفي غيرها ، تقابلان ما تخصص في العربية بالطائرة والمطار ، بضم الميم ، كما سئرى .

وهنا تقف غير العربية ، فليس فيها طيار مشتق من Aviar بل فيها Piloto ونحوها ، بما لا علاقة لها بمادة الطيران ، بل هو من Pilotear العام في الجو والبحر والارض ، وان كان قد اشتق له فيما مضى Aviador في الاسبانية ، ونحوها ، و Aviator في الانجليزية كذلك ، الا ان الاستعمال الآن جنح الى المعروف بكونه يعم القائد والمرشد في السماء والارض والبحار ، وقد بدأت العربية تجاري عولاء في هذا الانحراف عن المادة الاصلية ، فصارت تسمي الطيار ، ربان الطائرة او ملاحها . ولا لزوم لهذه المجازة ، خصوصا وانها تستبدل بالكلمة الواحدة ، وهي الطيار ، كلمتين ، وهما ربان الطائرة او ملاحها ، ، زيادة على ان العربية لها فضل السبق في خلق كلمة طيار للأدمى ، وقد مضى عليها اربعة عشر قرنا ، منذ لقب بها الشهيد جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه .

نكتفي بهذا المثال ، مما هو في غير العربية من العام المخصص ، ونوجه الى مقابله ، الخاص المعم .

فمن ذلك كلمة الرائد ، فقد اشتق هذا من الورد الى الماء خاصة ، ثم تعمم باللاتيان الى كل مطلوب ، وكان الرائد الذي يتقدم قومه في السفر ليهديهم الطريق ، ومنه الرائد لا يكذب قومه ، بل صار الورد عاما في كل آت مادي او معنوي حقيقي او مجازي ، مثل ورد فلان وورد الخبر علينا وورد الماء والتيار الكهربائي او الضوء ان اردنا .

ومن ذلك كلمة الاستنباط ، فقد كانت خاصة بعمل النبط ، وهو استخراجهم للمياه ، الذي مهروا فيه ، كالفيلاليين فيما مضى عندنا ، ثم صار كل استخراج للمياه يدعى استنباطا ، ولو لم يكن المستخرج نبطيا . ثم زاد التعميم في كل استخراج للمياه وغيرها ثم تعدى هذا الى المعنويات ، ولازمها حتى اصبح او كاد يتخصص بها فيقع له ما سيقع لرواد الفضاء ، فيطلق عليهم رواد بدون هذا القيد .

ومن ذلك كلمة ماهية التي دخلت الى العربية من « ماه » القمر في الفارسية ، وهي بمعنى المرتب

الشهري ، ثم أصبحت تطلق على كل مرتب ، شهريا
كان أم غير ذلك .

ونظيره كلمة مشهرة التي دخلت الفارسية من
العربية بمعنى المرتب الشهري ثم صارت تطلق على
كل مرتب شهريا كان أم غير شهري .

ومن ذلك كلمة كفل ، وقد جاءت الى عفوا ،
فوجدت أصلها خاصا بالكساء الذي يوضع على ظهر
البعير فيعقد طرفاه ويلقى مقدمه على كاهل البعير
ومؤخره على عجزه ، فالاكفال غير الإحلاس ، كما في
الأمثال ، ثم قبل تكفل الحمار ، اذا حلق ثوبا على
ظهره وركبه ، ثم اطلق على كل اشتغال مادي ، ثم
معنوي كالنفقة والقيام بالاشياء عامة ومضاعفة
الجزاء ، وصارت الكلمة تجنح الى المعنويات فيقال
تكفل فلان بالامر ، اذا تعهد القيام به .

وهكذا تتعمم الكلمات في مدلولاتها التي كانت
خاصة ، بالكثرة التي جعلت اللغويين ، يدعون أن
الكلمات في نشأتها كانت خاصة ، وما تعممت الا
اخيرا ، حيث ارتقى الانسان ، فأدرك الكليات بعد
ادراكه للجزئيات ، وهو ما أدركه المناطقة عموما ،
فقال السلم مثلا :

من أوليات مشاهدات
مجربات متواترات

الى آخر اليقينيات التي نشأت من المشاهدات
هذه امثلة من العربية ، اما غيرها ، فكلمة
Arrive الانجليزية ، كان معناها الوصول الى
River أي النهر ، ثم صار معناها الوصول مطلقا
وكلمة Salary كان معناها النقود التي تصرف
لشراء الملح من كلمة Sal ثم صار معناها ما
يدفع للاجير او الموظف عامة وصارت تجنح الى
المرتب الشهري وهكذا نجد في عدد من اللغات
يصبح الخاص عاما ثم تدور الدائرة فيصبح هذا العام
خاصا في معنى جديد غالبا واللفة كائن حي نشيط

ومن هذه الوسائل التي توسلت بها العربية في
توسعها او يمكن أن تتوسل بها الاشتقاق من الزمان
والمكان فالزمان ، كالصباح والغداة والمساء والعشاء
والضحى والقائلة والليل

فمن الصباح اشتقت العربية اصبح ونحوه ،
كما قال الافوه الاودي :

أصبحت من بعد لون واحد
وهو لونان وفي ذاك اعتبار
ومن المساء ، كذلك ، مما نجده في قول أبي
تمام :

وما كان الا مال من قل ماله
وذخرا لمن أمسى وليس له ذخرا

ومن الغداة كما في قول الفند الزماني :

مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان

ومن الضحى ، قول عمر بن الخطاب : « اضحوا
عباد الله » اي صلوا بالضحى

ومن العشاء ، قول الحطيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد

فمعنى تعشو تراها ليلا وتقصدها فيه عشاء .

ومن القائلة ، الحديث « قيلوا فان
الشياطين لا تقيل » .

ومن الليل ، قول ابن حبوس الفاسي :

والكل في علم الامام مقصر
حسب المبرز منهم ان ليلا

وقالوا كذلك : ليل فلان اذا دخل في الليل ،
والليل الكروان ، لتفريده ليلا ، ولهذا اسمه
بالانجليزية Nightingale ففيها هذا الاشتقاق من
الليل كذلك ، كما اشتقت من الصباح Morning
واشتقت الاسبانية من الصبح Madrugar فالاول
من Morn والثاني من Madruga التي يرادفها
Alba وهو اول ضوء للنهار ، كما اشتقت الانجليزية
من المساء ايضا Evening فهو مشتق من Eve
اي انتصاف النهار ، ونحوه موجود في الاسبانية ،
وان كانت قد جنحت به الى معنى ما تؤديه « ظل »
في العربية ، وهو تطور في الدلالة ، من القيد الى
الاطلاق ، او من التخصيص الى التعميم ، كما حدث
في العربية ، للأفعال السابقة ، أصبح وأمسى
وأضحى وحتى غدا ايضا ، فصارت من الافعال
الناقصة ، وهي في تلك الامثلة السابقة افعال تامة ،
والا لما دخلت واو الحال على ما ندعيه خبرا في
غيرها ، كما رأينا ، وكما في قول الفند المذكور :

فلما صرح الشر

فأمسى وهو عريان

بل ان « ليس » التي ادعي فيها النقصان دائما، وردت تامة ، كما فى قول النابغة :

إذا ذهب العتاب فليس حب

ويبقى الحب ما بقي العتاب

وهذا مبحث آخر ستناوله عند تناولنا للفة فى تراكيبها ، اما الآن فنحن بصدد مفرداتها

ومن الاستعانة بالزمان ، قولنا الغداء . لطعام الغداة ، والعشاء لطعام العشاء

ثانيا - المكان ، نقول : انجد فلان صار فى نجد

واسهل صار فى سهل

واجبل صار فى جبل ، قال ابن حبوس الفاسي :

وتفجرت عين النباهة بعدما

قد كان خاطرها اكل واجبلا

اي انقطع ، والاصل فيه سعد فى الجبال وأوقل فيها ، فانقطع خبره ، بل الوقل نفسه من هذا ، فهو الحجارة ، وبذلك يكون من قبيل المكان

وانهم صار فى تهامة

وأيمن صار فى اليمن ، وكذلك ، يامن

وعرض صار فى العروض ، وهي مكة والمدينة ، والطريق فى عرض الجبل ، قال عبد يفيو :

فيا راكبا اما عرضت قبلنا

ندامي من نجران الا تلاقيا

وهكذا استفادت العربية من الزمان ، كما استفادت أيضا من المكان ، فقالت اعرق وبدا وتمدن وغار وأبلد وأيمن وأشام وأجنب وأشمل وشرق وغرب .

فمن نجد ، وغور قول الاعشى :

نبي يرى ما لا ترون وذكره

أغار لعمري فى البلاد وانجدا

ومن العراق وتهامة وعمان ونجد أيضا ، قول المرق العبدى :

فان تنهموا أنجد خلافا عليكم

وان تغمنوا مستحقي الحرب اعرق

ومن الشام ، قول الشاعر :

سمعت بنا قيل الوشاة فأصبحت

صرمت حبالك فى الخليط المشتم

ومن البداوة ، الحديث الشريف « من بدا جفا » أي من سكن البادية اكتسب منها الجفاء

ومن المدينة ، قولهم تمدن فلان ، اذا سكن المدينة .

ومن البلد ، قولهم أبلد بالمكان اتخذه بلدا

ومن الجنوب ، قولهم اجنب القوم ، اذا دخلوا فى الجنوب

ومن الشمال ، قولهم : اشملا ، اي دخلوا الشمال .

ومن الشرق ، قولهم : شرق فلان ، اذا اخذ فى ناحية الشرق .

ومن الغرب ، قولهم : غرب ، اذا اخذ فى ناحية الغرب ، قال الشاعر فيها :

سارت مغربة وسرت مشرقا

شتان بين مشرق ومغرب

وبهذا نرى العربية قد استفادت من المكان ، استفادتها من الزمان استفادة واسعة ، وهو ما لا نجده فى غيرها أيضا كذلك فقد نجد فى الاسبانية من الاندلس Andaluzada و Andalucismo فالكلمة الاولى يراد بها المبالغات الاندلسية ، والثانية اللهجة كذلك ومن قشيلية Castilianizar ، والمراد بها الاسلوب المنسوب لكستيليا بلقن للاجانب عنها ، فلاشتقاق اذن حصل بعد النسبة لها ولا تكاد نجد هذا الاشتقاق فى غير هاتين الناحيتين ، وطبعاً لا يتوقع ان يوجد شيء من ذلك فى الانجليزية التى تتحرك فى اشتقاقها بمساعدة فعل الكينونة ، ان لم يكن هناك مصدر تعتمد عليه مباشرة ، وكذلك الشأن فى الالمانية والفارسية والتركية .

نعم ، قد سبق ان « Arrive » مأخوذ من « River » ولكن قواميسهم فى Etymology تذكر ان الانجليز اخذوا هذه من الفرنسية بعد اشتقاق الكلمة فيها

حقيقة ان الاسبانية اشتقت من الطريق فقالت: Caminar من Camino ولكن الملاحظ فى هذه الحركة اكثر من الصيرورة فيه ، ولهذا لم تذكره

« الطويلة » باسم طمطم Tomtom وتسمية لعبة « البينكيونك Ping-pong و Croquet ربما تكون كلمة « التراكاتور » من هذا اقبيل . وعلى فرض انها مأخوذة من اللاتينية ، فان هذه قد حاكت الصوت . فيما سمع به قديما ، وقلدت في ذلك حديثا . قل لي طالب اسرائيلي ، كان يحضر علي درس الفارسية . اني ادركت تماما معنى كلمة « كرفتن » اي القبض والاستيلاء ، ولا شك ان ذلك كان في خفة وانتشال ، وهذا طبعا يفهمه الاسرائيلي اكثر من غيره .

الاساطير ، فنسمي طائرة من الطائرات ، مثلا ، باسم العنقاء ، او آلة هتلة باسم الفول ، وقد فعلت هذا انجلترا فسعت الآلة الرافعة للانتقال العظيمة باسم Bogey ومعناه الفول ، واخيرا وجدنا اميركا تلجئ الى اساطير اليونان ، فتسمي باسم اله الشمس وغيرها Apollo ثم تستعين بالارقام بعد ، فيكون ابولو واحد واثنين الى خمسة عشر ، وهكذا دواليك ، وهي التي سميت طائرتها المدمرة Phantom اي بعبع .

وقد يلعب الخيال ، فيصور الاشياء وهي لا ترى ، بصورة ما ، كدائرة السوء ، او يضي عليها لونا ، كالحمي الصفراء والاسودين للتمر والماء او يجعلها تصيب كنداء المجهول ، وهذا في الواقع من صنيع الشعراء ، واصحاب الخيال الخصب ، ولكنه اذا ما شعر صار يؤدي ما تؤديه الاسماء المعتادة فمن منا يجهد فهمه في ادراك « صوت الضمير » و « دائرة السوء » التي جاءت في القرآن الكريم ، وادركتها الافهام بلا كلفة او مشقة ، كما ادركت « رؤوس الشياطين » وقد جاءت في القرآن ، وادركت « انياب اغوال » في شعر امرئ القيس :

ايقتلني والمشرقي مضاجعي
ومسنونة زرق. كانياب اغوال

وبعد هذا كله فللغة ان تخترع ، وهذا من علامة حيوتها واستجابتها الى كل ما يجد في الحياة ومتطلباتها ، وقد جاء الاسلام بجديد فاحتاجت اللغة الى جديد في اللغة ، فاخترعت الفاظا قرآنية ، لم يكن العرب يعرفونها ، وخصوصا فيما يتصل بالآخرة من تصوير احوالها وعذابها او نعيم جناتها ، كالسلسيل ، والصعود ، وسقر ، وسجين ،

في هذه الظروف المكانية ، وبعبارة ان الطريق ، كان بعد الطروق ، فهو مأخوذ من الفعل لا الفعل مأخوذ منه ، ومادة الفعل اوسع منه فهو فعيل من الطرق بمعنى مفعول منه .

وبالجملة فالزمان والمكان لهما أهمية خاصة في العربية ، ولذلك الف المرزوقي الاصفهاني من رجال القرن الرابع واول الخوامس كتابه القيم « الازمنة والامكنة » وكان استاذنا المستشرق Paul Kraus اذا سأل احدا عن هذا الكتاب ، فاجاب بأنه لا يعرفه ، ينحى عنه بالتجهيل والتقريع . لان مثل هذا الكتاب ، يجب ان يكون كل طالب في العربية على علم به واطلاع عليه .

ومهما يكن ، فاننا زيادة على تلك الوسائل التي ذكرنا ، لنا وسائل اخرى نجعلها فيما يلي :

الالوان ، كتسمية نوع من الحيات ، باسم الاسود ، والتسمية بأحمر ثمود ، والاعتماد على اللون ، نجده حديثا في مثل البطاقة الرمادية والبطاقة الخضراء ، المعروفتين لكل سائق سيارة .

الاشكال ، كما هو معروف عند الموقتين ، في نحو نحو «الربع المجيب» و «الربع المقنطر» وعند اصحاب الهندسة ، كالربعات والمثلثات ونحوهما ، وقد تتعاون الالوان والاشكال والاصوات ، كما حصل هذا في « المربع الاحمر » لاصحاب زيت لوسيسور . وقد ذكر النحاة امثلة لذلك ، في نحو طاق للضرب ، وطق لوقع الحجر ، وغب لوقع السيف ، وساق حر ، لطائر ، قال الشاعر :

وما هاج هذا الشوق الاحماسة
دعت ساق حر ترحة وترنما

وقد وقف فقهاء اللغة عند هذه الكلمة وقفة طويلة ، يمللون اشتقاقها .

اما النحاة ، فمقدوا لهذا باب حكاية الاصوات ، كما ان اللغويين القدامى والمحدثين ، والفلاسفة في القديم ايضا ، استرعى نظرهم ذلك ، فكان منهم من ادعى ان الالفاظ اللغوية كلها ، انما نشأت حكاية للاصوات ، وهذا لا يعيننا ، ان كان صحيحا ام لا ، بقدر ما نستفيد منه ، وهو كائن في اللغة ، ويمكن الاستفادة منه ، وقد راينا في اللغات الحية ، شيئا من هذا ، كما في تسمية

وطوبى ، وغساق ، وغير هذه ، وان ادعى كونها
معربات .

وهذا ليس بدعا فى اللغات عامة ، وعندنا كلمة
Gaz تعيش فى كل مكان . ولا يعرف لها اصل البتة .

واذكر ان احدهم صنع شيئا ، فدخل عليه طفل
سأله عن اسم المصنوع . فسأله هذا الصانع : كيف
تسميه ؟ قال له . كذا ، فسماه بذلك . ولم يكن
لذلك الاسم اصل من اللغة ، وقد وضع احدهم
رسوما متكررة . على شكل زوايا حادة متسلسلة ،
ودعاها « كيكريكو » ورسم الى جانبه رسما آخر .
عبارة عن سلسلة من انصاف دوائر ودعاها « امبو »
ولكنه وضع الاسمين ، ودعا تلاميذ من مختلف
الجنسيات واللغات وسألهم : اي الرسميين
« كيكريكو » فكلهم اجاب بأنه صاحب الزوايا الحادة
ولا شك انهم يدركون العلاقة بين تتره مك التركية
والاضطراب و trouble والواقع ان الرسم له
صلة بما يعرف عند الرسامين ، باسم « كروكي » .
واعرف سيدة اخترعت كلمة « زوطوطو » فسارت
الكلمة فى الوسط العائلي ومن الكلمات المخترعة
كلمة « روكوكو » Rococo وهو من اسماء
الزخارف ، وكلمة « كوداك » Kodak .

ولا شك ان هذه الكلمات ، سيزداد عليها . ولن
تقف مكتوفة ، بل سيشتق منها فيما بعد ، شأنها
شان باقي الكلمات فى العربية . سأل الضيف صاحب
المنزل عن طعام ، قد أتى عليه ، فأغاظ صاحب المنزل
الاب الفقير ، ما اسم هذا الطعام ؟ فأجابه بفيض :
« الكجدور » فقال له : « على شى ما كجدرتوشى منو
بزاف ؟ » وهكذا اشتق من الكلمة الفريية عليه ، بمجرد
فهم مدلولها ، كما اعتقد ، وهي طبيعة العربية الام
الولود ، التى تمكن اولادها من حرية التصرف ،
فيشتقون من « الاستيك » ، فعل « استك » وغيره ،
كما يشتقون من da le المركبة فى الاسبانية من
فعل أمر من صدر dar اي الاعطاء ، والمفعول
فكان التعبير dale اي اعطه ، ولكننا قلنا دالا
عليه ويدالي الى غير ذلك من كل ما يدخل الى
العربية من كلمات لها اصولها او مخترعة لا اصول
لها ، كما تقدمت امثلة له .

وبعدما تعرضنا للتعريب فى مفهومه القديم
والحديث والوسائل التى تمكننا من سد الحاجة التى
نشعر بها خيال هذا العصر واخترعاته المتلاحقة ،
وما تتطلبه حضاراته المختلفة .

نلقى النظرة الاخيرة على ميدان التعريب ،
يكون بهذا تلخيص ما تقدم وتبسط بعض الجوانب
منه ، بأمثلة منها ما يعايشنا ويسايرنا فى ثقافتنا
اليومية ، ونحن فى مضمار الحياة ومعترك
الاحداث .

ولا شك ان اماننا مشاكل متنوعة فى هذا
المضمار وذلك المعترك . فهناك العامية ، التى يجب
ان نأخذ بيدها ونسمو بها الى مستوى راق . بدل ان
ننزل اليها من هذا المستوى الراقى . وهناك الفن
ومذاهبه ، كما قيل ، فهو يصور الحياة فى لوحاته
الزاهية والشاحبة والقائمة ، برسومه وموسيقاه ،
التي أصبحت تتطور مع الايام بأدواتها واصداها ،
الى جانب ذلك الرسم الذى لا يقتصر على المشاهد ،
بل أصبح يجاذب الكتابة ويرقى الى الرموز ، التى قد
تعجز عنها الكتابة نفسها ، فهو يسبح فى عوالم خارقة
للعادات وهو يخاطب او يحاول ان يخاطب وجدانات ،
بلفات لا تقوى عليها الكتابات والاصوات ، فهو حر
طليق لا يعترف حتى بسلطان النفسيات والمسجلات
للخبرات الرتبية ، فى سهولة تراء منه او اسلاس
ينقاد به . انها الثورة التى يريدها الخيال الجامح
فى اعلانها المكسرة لاصنامها . وهناك النحت ، لا يقل
فى غاياته عن غابات الرسم ، وان كان طريقه وعرا ،
تكتنفه الصخور عليه ان ينحت منها ، والاحوال عليه
ان يفوض فيها فهو على رعونته ، أصبح لا يقل عما
عليه الرسم فى اطيافه واحلامه ، ووداعته وثوراته .

وهناك الكلام ، وهما كما يقول الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والفؤاد هذا قلب قلب ، يقبله من هو كل يوم
فى شأن ، فعلى اللغة ان تسجل خطراته ، وان تضبط
دقاته ، وهي كما قال شوقي :

دقات قلب المرء قائلة له

ان الحياة دقائق وثوان

نعم ، انها دقائق وثوان ، ولكن هذه الدقائق
والثواني ، ما اعظم متطلباتها ، وما اشد ما يتحمل
الانسان من اماناتها ، وقد أبت السماوات والارض
والجبال ان يحملن هذه الامانات ، كما قال تعالى
« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال
فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه

ويطبق على ذلك قواعد ما يشبه عنده . كما عليه ان
يخترع اسما جديدا لهذا العلم ، والكيمائي عليه ان
يحلل عناصر ما في هذا الكون او الاكوان ، ويسمى
تلك العناصر بما يخترع لها من اسماء ، لان المدلولات
قد تكون غريبة عن هذا الكون ، وليس لهؤلاء ان
يقولوا لعرائس تلك الافلاك :

صوني جمالك عنا اثنا بشر
من التراب وهذا الجسم روحاني
او فابتغي فلكا تأوينه ملكا
لم يتخذ شركا في العالم الفاني

لان هذه العرائس تأوي فعلا هذه الافلاك فلم
تتخذ لها شركا في عالم غير عوالمها ، ولكن الانسان
هناك استارها وكشف خدورها فتجأت مفاتنها
للإبصار ، وانهرت لاسرارها البصائر ، فلا اقل للغة
من الوصف ولا مناص لها من الكشف ، بكل دقة وكل
تبيان .

ان هذا الاكتشاف الذي ستلوه اكتشافات ،
قد تطالب آلاف الآلات والادوات ، فعلى اللغة ان
تسمي كل ذلك بدقة وتفهمه للفهام وليس بقادر على
هذا الا اهل العلم انفسهم ، وقد وضعت اللغة امامهم
وبين ايديهم ما تملك من ادوات التعبير ، ووسائله
كالاشتقاق من الحقيقة والمجاز وكالتشبيه وحكاية
الاصوات والنحت والتخصيص والتعميم وكالاستعارة
من اللغات بعضها من بعض وكالاختراع للكلمات
وخلقها من العدم ، اذا لم نجد في هذا الوجود ما
نستفيد من لونه او شكله او رائحته او حركته او ما
الى ذلك او مما يسعفنا بمعاثلة ما ولو في الوهم او
الخيال الذي يساورنا او يخلف لنا من اساطيره
وخرافاته .

لقد سمي آباؤنا سائل الكلونيا ، باسم «مسيكو»
فاسمعتهم الرائحة ، واخترع « شيكبير » اسم
« دولار » قبل ان يكون دولار وسمى آباؤنا ايضا
الدراجة ، باسم « عود الريح » معتمدين على
السرعة في الحركة ، وكان هذا تلقائيا منهم ووفقوا
كل التوفيق (وفي الفارسية « دوجرخه » اي
فلكتان) اذن فالعزم اولا هو ما نتذرع به ، في
مواجهة التعريب ، وفي القديم واجه القوم ، فما
وهنوا ولا ضعفوا ، وحلوا مشاكلهم في تدوين
الدواوين ، ونقل العلوم المختلفة والاداب الثبانية
والعقائد المتضاربة الى لغة الضاد ، ولم يكن اولئك
اقدر منا في العربية ولا افهم منا لتلك العلوم

كان ظلوما جهولا » هو ظلوم عليه ان ينصف نفسه
وينصف اناس . وهو جهول عليه ان يعلم ويتعلم ما
ينبغي رغبات الافئدة في هوائها . والعقول في مناطها ،
والاجسام في علها واسقامها ، وصحتها وملاذها .
من المشاهد والاذواق والمشاغل والاسماع .

فهذا فن الكلام في آدابه ، التي تتولد وتتفاعل
في الوانها وامشاجها ومعطياتها ومقاصدها ، وجميعها
في تطور مطرد وفي انفصال هلامي مستمر . وفي
استقلال ببيء اصحابها واطانها ومجتمعاتها وافكارها
وثقافتها ، بعد اللغات ، وقد اصبحت تعد بالالاف .
واسبح على الانسان ان يفهم كل شيء ، وقد واجه في
حياته كل شيء ، فخيتم عليه الظلال من كل مكان ،
ووجهت عليه الانوار والنيان ، فعلى هذه اللغة ان
تسمد بكل شجاعة ، وعليها ان تقوم برسالتها ، بكل
عزم وقوة ، فتمثل دورها في جميع المحافل خير تمثيل
ان كانت على قيد الحياة .

ومن وراء هذا كله الفلسفة التي اصبحت من
هذا الجيل مطالبة بالجديد ، والا فعليها ان تنزوي
من مسرح الحياة الجديد في جميع فروعها ، حتى
« الميتافيزيقا » نفسها ، فمهماتها صعبة في هذا
العالم الصعب المعقد ، الذي لا يرحم احدا ولا يحجم
عن الاخذ بتلابيب العلماء العظام والفلاسفة الكبار ،
فعلهم ان يفهموا ويبسطوا وعليهم ان يقتنوا العقول
وهي في زيفاتها وصراعاها للايكترونية العملاق .

وهذا العلم لم يبق بالرتابة او القداسة التي
كان عليها ، فهو يطارد مطاردة لا هوادة فيها ، منذ
بداية هذا القرن ، واشتدت المطاردة اثناء الحرب
الاخيرة ، وازدادت اشتدادا بعدها ، وصارت
الدنيا تميز بها ، واذا بالافلاك والنيان تناجي
الانسان فيطالب العالم بان يحمله الى هذه الكواكب
والافلاك ، فلا يجد المسكين مناصا من ان يستجيب
لمطالب الانسان الجبار ، فيبني له المراكب الفضائية
ويزوده فيها بما يضمن له السلامة ولا يحرمه مع هذا
من الاتصال بالعالم الارضي لحظة ، ويتكفل بالعودة
به اليه بعد ان يحط رحاله بتلك الكواكب ويطوف
في ارجائها ويحمل من متاعها ويستعمر من بقاعها ،
فلا يلبث بعد عودته ان يطالب العلم بدراسة هذه
العوالم العليا .

فالجغرافي عليه ان يخترع ما يشبه علمه لهذه
الكواكب ، بل عليه ان يخترع اسما خاصا لهذا العلم ،
والجيولوجي عليه ان يدرس طبقات هذه الكواكب ،

والآداب وغيرها ، بل كانوا دوننا فى ذلك ولا شك ،
الا انهم كانوا يتوفرون على شيء لا تتوفر عليه ، وهو
الشعور بالعزة والكرامة وانهم سادة يجب ان يخضعوا
لهم ، لا ان يخضعوا لغيرهم ، وبذلك اخضعوا
لنفسهم ، فى يسر ، كل ما وصلوا اليه او اتصل
بهم .

هذا هو موقفنا الذى يجب ان نقفه ازاء هذا
التعريب ، وهو موقف : لا محالة . يدعو الى
انتخض . بعد تلك العزيمة ، وإلى النهل من
العربية والتعمق فيها . حتى يمكن كل عالم او صانع
او مفن او متفلسف ، ان يتولى ما يراوله او يعانیه
بالتعريب .

وعليه ، فالطبيب يتولى تعريب ما يتصل بطبه .
والمهندس يتولى ما يتصل بهندسته ، والمتفلسف
والفنان ، كل لما يتصل بهأويته والصانع كذلك يعرب
ما يتصل بصناعته ، وقد مكناه من ذلك بالتعليم ،
الذى يسير فى ركبته هذا التعريب .

ولا نهمل مع هذا استشارة الشعب ، بل نعود
الى قاموسه الحي ، الذى يمدنا بنحو « عود الريح »
و « ميكو » و « والصدفة » و « الكسكاس »
و « غويلة » و « ترابية » ، وغير هذه من الكلمات
التي تخضع للعربية وقوانينها ، كما نتلقى منهم من
غير مشقة ما عربوه هم مثل يكمي ، من Quemar
الاسبانية والكرو من Cigarro الاسبانية ايضا الا
اننا نخضع الكلمة لقانون العربية ، فلا نتركها لمتنها
هذا ، وفى آخرها واو قبائها ضمة لازمة ، بل تختم
بهاء مثلا ، كما فعلنا فى ينيه ويلييه وسيبويه ،
وسميت الصورة السالبة باسم « عقرية » فى عامة
الشرق ، فلنا ان نستعير حتى من العامية .

كما نستعين برصيدنا فى الخارج فالاسبانية
اخذت كلمة « كحال » Oculista لطبيب العيون
وعنها اخذتها باقى اللغات الاوربية كما اخذتها مباشرة
الفارسية والتركية . فلماذا لا نستعملها نحن العرب
فنجاري اللغات الحية التي استعارت منا ولنا
الفضل عليهم ؟ ربما نائف من هذا ، فلم لم يائف
غيرنا ان يسموا طبيب الانسان بالسنى Dentiste
كما فى اللغات الاوربية والتركية ؟ وعلينا ان نجاري
غيرنا فى ذلك ، وقد استعملت هذه التسمية « دنشيلة »
فى الاندلس وان كانت فى الاحتفال يبدو الانسان ،
وادعى بعضهم ان لها أصلا فى الفصحى ، وتوقف
الزبيدي هنا .

والفارسية ثم التركية سمت الهيدر وجين
« مولد الماء » كما تقدم ، واستعملت التركية
« تهلكة » بدل « خطر » ، والاسبانية « انبوب »
Embubo بدل قمع . وهكذا نجد الفاظا نستفيد
من وجودها فى الخارج او نختارها منه .

وهذا عمل يحتاج الى تعبئة عامة ، وكفاح
يشارك فيه الجميع : الحكومة بتدخلها فى تعريب
انلافتات والتذاكر واللوائح والصحافة باختيار الكتب
والثقفين حقا والمتخصصين فى العربية تخصصا
عميقا . فلا تترك الصحافة فى ايدي من لا يحسن
لغتها من المتطفلين عليها ، والتمثيل المسرحي كذلك
له رسالة فى هذا التعريب ، فعليه ان يختار
الموضوعات التي يستضيفها الشعب حتى يقبل عليها
فى لغتها ، فتعمل فيه بطريق الإيحاء ، وكذلك
التمثيل الخيالي ومسرحه فى الواقع أقسح من غيره ،
والأغاني العربية وحتى الشعبية تخدم كذلك التعريب ،
اذا احسنا استعمالها واخترنا اصواتها الجميلة
والحانها السجية واعدناها بالموسيقى العذبة
المؤثرة والاذاعة والتلفزة من اقوى دعائم هذه التعريب ،
فهى الصوت الذى يصحنا ويمسنا والمشهد الذى
تحيينا وتسامرنا وتناجينا .

اما المدرسة والكتاب ففني امرهما عن البيان ،
ولابد من الاستمرار والتذكير ، فقد كنت كتبت فى
كون العمالة بالكسر ، فكان لهذا صدها فى اذاعة
تطوان وفاس ولكن التذكير بهذا انقطع فعاد الناس
الى العمالة بالفتح وعدت انا معهم الى هذا الضلال
على علم به مني .

واخيرا ، لقد تركنا المفردات وما يمكن ان
يستفيد منه التعريب فى حركته الدأبة بنشاط
هذه الاحياء البشرية وبقي علينا ان نوجه العناية الى
المفردات فى تركيبها ، او تعريب الاساليب ، ان
صح هذا التعريب .

وموقفنا هاهنا لن يطول ، لانه لن يكون معربا
بحق وحقيقة ، فالعربية قد انتهت الى تراكيبها ،
وليس فى الامكان ابداع مما كان فى بنيتها ، وارتفعت
الاقلام عن تسطيرها وجفت الصحف بما فيها .

الا ان هناك ، جوانب لا تمت الى الخلق والابداع
من جديد ، بل هي فى الواقع محافظة على ذلك
الكيان اللغوي الذى هو بالنسبة اليها القلعة المتينة
والحصن الحصين ، الذى يجب الدفاع عنه الى آخر
قطرة من دماء هذه اللغة الابية المستمينة الصامدة .

ان العربية كما قلنا ، كريمة كأصحابها مضياف
تكرم نزلاءها ، فوجود مائات او آلاف من الكلمات
الدخيلة فيها لا يهدد حوزتها ، بل بالعكس يزيد
قوة ويكسبها منعة ، فى مواجهات كل الطواريء .

ولكن العبث بالنظام المتبع فيها ، واحداث
الفوضى فى مجتمعها ، هو الذى لا يقبله بحال . وهو
الذى يجب الا تقبله ، كما لا يقبله اى عرف من
اعراف اللغات قاطبة ، وهي لغات لها كرامتها ونها
وجودها الازلي والخالد خلود الدهر .

ونعود فنقول ، اننا لن نطيل فى هذا التعريب
التركيبى . وسنقف وقفة قصيرة : عند بعض
الاعراض ولا نقول الامراض التى طرات على هذه
العربية فى عصرنا المريض برجاله ومثله العليا .

فاول تلك الاعراض ، بل اول تلك الامراض ،
مع العذرة ، مرض حل بمستقبل هذه اللغة ، نعم ،
حل بمستقبلها مع الاسف ، ولكنه حل بمستقبلها
السلبى ، لا الايجابى ، احسن الحظ ، والله الحمد
على كل حال .

من المعلوم ، ان الافعال فى اللغات ، هي مفاتيح
تلك اللغات ، بل هي حياتها التى يكون حيوانها ،
والحيوان فى الواقع ، ما هو الا الحركة الجياشة ،
كالفيضان والغليان والثوران والجيشان نفسه ، وبهذا
الاعتبار ، قال تعالى : « وان الدار الآخرة لهي
الحيوان لو كانوا يعلمون » وبذلك تكون هذه الكلمة
فى مدلولها الآن قد انحرفت عما خلقت لاجله .

وهذا لا يهمنا الآن ، فقد انتهينا من المفردات ،
كما قلنا وعلينا ان نعالج مستقبل هذه اللغة فى افعالها
السلبية ، وهي التى تحتاج الى علاج ناجع وسريع .

نقول سوف نفعل ، كما نقول سنفعل ، وهذا
الاخير مختزل من الاول ، وكان قد عمل فيه هذا
الاختزال ، فقول سوف افعل ، وسف افعل ، واخيرا
سافعل ، فوقع الاختصار على حرف السين
وحده ، واهمل الاختصار عليه مع الواو او الفاء ،
وحفظ على الام الرؤوم « سوف افعل » وهذا
جميل فى هذه العربية التى تتجدد وتتطور ، ولكنها
لا تتنكر للماضى ، ولا تعق الامومة والابوة .

هذا هو الفعل المستقبل الموجب فى العربية ،
سلمه الله من كل بلاء ، ودرا عنه كل اداء ، فبقى
كيوم ولدته امه على فراش الصون والعفاف

ولكن المستقبل المنفي وقع فيه من المصائب ما
لا عين رأت ولا اذن سمعت بمثله فى غير هذه اللغة
الشريفة نسمع دائما ونقرأ دائما ، وخصوصا فى
صحافتنا المسكينة هذا التعبير :

« سوف لا يأتي فلان » ونسمع ونقرأ فى
صحافتنا المنكوبة ، ما هو افظع من هذا وادهى ...
نسمع ونقرأ :

« سوف لن يأتي فلان » ، ، فض الله فم من
كان اول الناطقين ، بتلك العبارة المسوخة ، وهذه
العبارة الملعونة من السماء ، لان الله ما انزل بها
من سلطان ، ولان كتابه الكريم قال : « لن تراني ولكن
انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني »
فعلما كيف نعبر بالمستقبل المنفي « لن تراني » وقابل
به المستقبل المثبت « فسوف تراني » .

اذن فاداة الاستقبال فى الفعل العربي المنفي ،
هي الاداة « لن » فنقول « لن يسافر فلان » فى
المستقبل من الزمان ، ولا نقول « سوف لا يسافر » ،
ومن المخجل ان تستعمل هذه العبارة ، فى التمثيلية
التي جابت من مصر فعرضت فى تلفرتنا بمناسبة
المولد الشريف ، وهي تحكي حوارا كان على عهد
الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

وافظع من هذه العبارة ، هو « سوف لن
يسافر » ، فتلك جهالة جهلاء ، وعدم اكتراث باللغة ،
التي ظن اصحابها اليوم ، كانهم قيل لهم فيها :
« تكلموا كيف شئتم » ، وصدق الشاعر :

رايت الحلم دل علي قومي
وقد يستجهل الرجل الحليم

ان مثل هذا التعبير انما هو استعمار انجليزي
تعدى الى اللغة بعد ان اعتدى على اصحابها ، وما
ابغضه من استعمار ، تخلص منه الناس ، ولم يتخلصوا
من ادوائه العديدة ، التى منها هذا الداء الوبيل ، فقد
تلقى احد الكتاب الطفيليين ، وما اكثرهم واسمجهم ،
مثل هذا التعبير الانجليزي I shall not come فقد
عليه عربيته المعذبة ، فى قبضته الاثيمة ، فقال :
« انا سوف لا آتي » او « سوف لن آتي » ولو آمن
جدا فى التعبير الذى سحره ، لقال : « انا سوف لا
آتيان » هكذا ، وهو تركيب لا يوجد الا فى
الانجليزية والالمانية بهذا النسخ وهذا الترتيب ، ولا
نعرف له مثيلا فى لغة اخرى غيرهما ، وهكذا نجد

العبارة المذكورة . تكون في الألمانية

ich werde nicht kommen

سواء بسواء ، فتجعل أداة النفي تالية لأداة الاستقبال ، كما في الإنجليزية وفي تعبيرنا هذا المسوخ « سوف لا » أو « سوف لن » كما تقدم ، بينما الفارسية تدخل أداة النفي على أداة الاستقبال ، ولا تجعلها تالية لها ، فتقول في نفس الجملة « من نخواهم آمد » فالنون نفي وتخالف هذه جميعا التركية ، التي تأتي بالمصدر المرحم وتلحق به أداة النفي ، ثم تأتي أداة الاستقبال فتقول « بن كله ميه جفم » ويبقى بعد هذا اللغات المتفرعة من اللاتينية ، كالإسبانية ، فإنها تأتي بأداة النفي ثم المصدر المرحم ثم أداة الاستقبال Yo no vendre

وبلاحظ أن هذه اللغات - ما عدا الإنجليزية - تصل ضمائر الفواعل أو علاماتها ، بأداة الاستقبال ، وأنها جميعا تستعين بالمصادر ، في صوغ فعل الاستقبال ، إلا أن الإنجليزية وليس لها مصدر غير مؤول ، تحذف الحرف الموصولي ، والألمانية تأتي بالمصدر كما هو ، بينما الفارسية والتركية والإسبانية ترخم هذا المصدر عموما .

ثم أنها تتحد في كونها لها أداة تدخل عليها أو تلحق بها أداة النفي ، وهي واحدة إلا في الإنجليزية ، فتختلف بحسب التكلم وغيره ، فهي للتكلم كما رأينا shall ولغيره will وقد يتبادلان قصد التأكيد كما يقول شيلي Our breath shall intermix وربما استعمل هذا الفعل في معناه الأصلي ، إذ لا مهمة له في الاستقبال

« We shall become the same. We shall be one spirit »

وكذلك العربية لها أداتان ، واحدة في الإثبات ، وهي « سوف » أو ما اختزل منها ، وواحدة في النفي وهي « لن » لا غيرها .

ولعل « سوف » كانت ظرف زمان في أصلها ، بنيت على الفتح للازمتها الظرفية ، وإن كان المستشرق Bergstraesse يرى أنها مستعارة من الآرامية Saupa ومعنى هذه « النهاية » أو « الغاية » ، فكان معنى « سوف أفعل » أي أفعل في النهاية والغاية .

يقول علماء اللسان ، أن اللغات السامية - ما عدا الأكادية منها - ليس لها الأزمان ، ماضي قديم انتهى ، وغيره لم ينته ويشمل الأمر والحال والاستقبال .

فكون العربية استعانت بسوف ظرف زمان ، أو saupa الآرامية على تعيين مستقبلها ، هذا شيء ليس بغريب في اللغات فالإنجليزية ، في غير التكلم خاصة ، والفارسية عموما ، استعانت بفعل الإرادة ، الذي ما زال بهما يستقل بنفسه أحيانا ، فكان الأصل في « سيفعل » مثلا هكذا « يريد الفعل » وفي التكلم استعانت الإنجليزية ، بكون الفعل ملزما ، فكان الأصل « سأفعل » هكذا « يلزمني الفعل » فهو الفاعل على الحقيقة ، وفي الألمانية استعين بفعل أصبح ، فكان الأصل في التعبير السابق هكذا « أنا لا أصبح أتينا » ويستعمل كذلك مستقلا وهذه الاستعانة نجدها في نحو « غادي » أو « ماشي » أو « خصني » أو « نحب » التي تستعمل بالعامية كما يستعمل الرواح والود بالشرق

وليس لنا أداة لا تؤدي إلا هذا الاستقبال المجرد ، سوى الاداة التركية والاداة الإسبانية الآتية من اللاتينية في غير العامية

هذه مقارنات في سوف مثبتة في العربية ، ومطلقة في غيرها .

وبقيت « لن » فما أصلها ؟

اختلف فيها ، فمنهم من يراها خلقت كذلك ، ومنهم من يرى أن النون ، حلت محل الالف من « لا » للتأكيد ، ومنهم من يرى أن أصلها « لا أن » فكان الأصل في « فلان لن يفعل » فلان لا أن يفعل ، فهي تفهم كون فعل لن يقع في الاستقبال .

ومهما يكن فجميع هذه اللغات - ما عدا التركية - استعملت النون للنفي هنا ، أما التركية فالميم وهي أخت النون التي طفت عليها تماما بالفارسية .. والنتيجة أن الفعل المستقبل في العربية ، إذا نفي يكون بلن وحدها ، كما قال الشاعر :

هي الشمس مطلعها في السما

فعر الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع اليها الصمودا

وان تستطيع اليك النزولا

ومن قبل بثلاث وعشرين سنة كتبت في أداة الاستقبال ، فاهتمت بذلك مجلة الروس البيض بتونس وأبدته في مجلتها « Ibla »

الفُصْحَى لغة القرآن

لغة فكر عالمي لنمو سبعة مليون مسلم جغرافيا ويمتد أربعة عشر قرنا في التاريخ والتراث

الأستاذ أنور الجندي (القاهرة)

ان طرح القضية على هذا النحو يمكن ان يكون صحيحا فى اي بلد من بلاد العالم وفى مواجهة اي لغة ولكنه يصبح عسيرا جدا حين يطرح بالنسبة للغة العربية . ولو لم ترتبط اللغة العربية بالقرآن والاسلام لكان يمكن ان يكون هذا الكلام مقبولا .

اما وقد انزل القرآن منذ اربعة عشر قرنا باللغة العربية فانشا عالم الاسلام الفكري والاجتماعي والديني فقد اصبح للغة العربية وضع مختلف لا شبيه له فى اي لغة اخرى . ولم يعد للعرب وحدهم حق التصرف فى اللغة العربية . ولم تعد اللغة العربية لغة اقليمية تخص قطرا ، بل لم تعد الامة العربية نفسها مطلقة الارادة فى التصرف بها .

هذه هي الحقيقة التي واجه بها المفكرون المسلمون منذ أكثر من ثمانين عاما تلك المحاولة التي قام بها ولكوكس فى مصر وماسينون فى الشام وكولان فى المغرب ، ثم تابعهم بعد ذلك سلامه موسى والخوري مارون غصن وكثيرون .

ان اخطر ما تمثل اللغة العربية هو ان قارئها اليوم فى العقد الثامن من القرن العشرين يستطيع ان يقرأ ويفهم ما كتب بها منذ القرن الخامس الميلادي (أي ما كتب قبل نزول الاسلام بأكثر من نصف قرن) .

ان التاريخ ليذكر ذلك الجهاد المتصل السذي حمل لواءه رجال امثال : مصطفى صادق الرافعي ، ومحب الدين الخطيب ، وأحمد زكي ناشا الملقب بشيخ العروبة ، وعبد العزيز جويش ، وعلي يوسف ، والدكتور محمد محمد حسين ، وأحمد الحوفي ، وغيرهم فى سبيل مقاومة الهجوم على اللغة العربية وانتقاصها ، والحملة عليها طوال تاريخ طويل يمتد الآن أكثر من خمسين عاما من خلال حملات المستشرقين والمبشرين ، ومن خلال مقررات حملها وزراء فى عهد الحماية البريطانية ودعوات فى الصحف وبعض المجمع من اجل تجزئة مفهوم اللغة العربية الاصيل المتكامل ، ومحاولة لتصوير اللغة العربية على انها لغة « أمة » ومن حق هذه الامة التصرف فيها .

تلك هي القضية : لقد حاول الاستعمار والتغريب ان يطرح شبهة جزئية وجرت الاقلام فى سبيل دعمها واقناع الناس بها ، ان اللغة العربية لغة أمة هي الامة العربية وان كل قطر من شأنه ان يكتب لغة ، وان هذا الامر يستدعي كل بلد ان يتناول هذه اللغة على النحو الذي يرضاه ويراها محققا هذه الغاية .

وكان هذا الاتجاه فى طرح القضية يحمل طابعا خطيرا من التهمويه والتزييف والتجاوز .

أي ان ترانا حافلا قام في خلال هذه الفترة كلها - واعظمه ما جاء بعد الاسلام بالطبع - هذا التراث هو ملك حر لقراء اللغة العربية يلمون به العاما صحيحا دون أن يكونوا في حاجة الى مراجع او معاجم ويفهمونه فهما صحيحا . وهذا ما لم يتيسر بالقطع لاي لغة في العالم كله اليوم ، وذلك ان أي لغة قائمة الآن بخلاف اللغة العربية لا يستطيع قراؤها ان يفهموا من تراثها الا ما لا يجاوز الثلاثة قرون ، اما ما يبعد عن ذلك فانهم يلتمسون لفهمه المعاجم . ان مرد ذلك ثبات اللغة العربية الذي لم يتح لأي لغة أخرى ، ومرجع هذا الثبات الى نزول القرآن بها وارتباطها به على النحو الذي انشأ هذه الثروة الضخمة من العلم والتراث والتأليف .

ومن هنا أصبح للغة العربية خاصية متميزة لا تستطيع اللغات الأخرى ان تشاركها فيها ولا تستطيع هي ان تجاوزها : تلك هي انها لغة أمة ولغة فكر ودين . فهي لغة الأمة العربية التي يبلغ تعدادها أكثر من مائة مليون يتكلمون بها وبها يتعاملون ، وهي في الوقت نفسه لغة المسلمين جميعا : لغة فكرهم ودينهم وصلاتهم ولغة ذلك الرباط الذي يجمعهم بالتشريع والعقيدة جميعا وهو القرآن الكريم .

ومن هنا كان الخطر الوحيد الذي يواجه أهل اللغة العربية هو ان يسقطوا عن مستأى أسلوب القرآن ، ليصبح أسلوبهم قاصرا عن فهمه وتعمقه ، لان ذلك من شأنه ان يفصل بينهم وبينه ، وذلك ما تحاوله القوى الهدامة المعادية للعرب والاسلام ، والتي تدعوهم الى ما يسمى باللغات الوسطى أو تقرييب الفصحى من العامية .

وامامنا القرآن وهو المقياس الثابت وعلينا في كل حركة من حركات العمل ان تقترب منه ونلتقي به ، فعلى العامية ان تقترب من الفصحى وليس على الفصحى ان تنزل الى العامية .

والتعليم كفيلا اذا اتسعت آفاقه ان يقلل من الحاجة الى العامية وان يقرب الاتصال بالفصحى .

والذوق العربي كله متصل بالفصاحة ، وفهم الفكر الاسلامي والثقافة العربية متصل بهذا المستوى من الاسلوب والبيان .

لقد كان لارتباط اللغة العربية بالقرآن الذي نزل بها آثاره البعيدة المدى ، فلقد اتصلت اللغة العربية التي كانت تعيش على حدود الجزيرة العربية الى آفاق

العالم كله وحملت معها ثقافة القرآن ، وحصيلة العلوم ، ونظريات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وحملت معها المنهج العلمي التجريبي . فالقرآن هو الذي اعطاها هذه المكانة وفتح امامها هذه الافاق ، فهي بوصفها لغة الاسلام قد حملت رسالة ضخمة الى العالم كله والى البشرية : هي رسالة التوحيد .

ولقد وهب القرآن اللغة العربية حصيلة ضخمة من المعطيات الفكرية والاجتماعية من خلال رسالته العالمية التي اتخذت من الفاظ اللغة العربية المتناثرة تشكيلا جديدا طرح على البشرية منهجا شاملا من الحياة والفكر والنظر في الكون وبسواء المجتمعات والاخلاق .

وكان هذا هو مصدر ذهنة الناس عند نزول القرآن ، فقد كانت هذه الالفاظ معروفة لهم بأعيانها ، ولكن الاعجاز كان متمثلا في هذا التشكيل الذي تشكلت به فكرا وأدباء ، في هذه القيم الجديدة التي قدمها ، وهذه الصور المتعددة ، وهذه الروعة في أسلوب الاقناع والحوار ، وهذه المناهج المتعددة في مخاطبة القلب والعقل .

ومعنى هذا ان ثروة اللغة العربية انما ترجع في تشكيلها القرآني الذي اعطاها هذه القوة ، وفي نفس الوقت اعطاها الاسلام هذا الاتساع والذيع .

ومن هنا قد أصبحت صلة اللغة العربية بالقرآن والاسلام صلة عضوية تمثل التجربة الاولى والاخيرة من نوعها في صلة رسالة السماء بلغة من اللغات ، ولا ريب ان هذا المفهوم له اثره البعيد في امتلاك المسلمين جميعا لهذه اللغة ، وما يتصل بهذا من خطأ القول بان لقطر ما او شعب ما ، القدرة على التصرف في اللغة العربية .

ومن الحق ان يقال ان اللغة العربية هي لغة فكر عالمي يضم سبعمائة مليون من المسلمين جغرافيا ويمتد اربعة عشر قرنا في التاريخ والتراث .

(2)

هذه الحقائق كانت واضحة في اذهان اولئك المنافحين عن اللغة العربية في كل عصر : نراه واضحا في عبارات مصطفى صادق الرافعي قبل خمسين عاما حين يعرض للقول بأن العربية لغة أمة أم لغة فكر :

من احوالنا وعلى كل حال فليس من شس بين اللغات المشتقة من اللاتينية التي كما قلنا كانت لغة ميتة وبين اللغة العربية الفصيحة التي هي لغة حية منذ أربع عشر قرنا ، لم تحط اللغات العامية الكثيرة من قدرها مسع شيوعها ، ولو امكنها ان تعزلا عن مرتبتها لفعلت ، لما كانت اللغات العامية سائدة بين الشعب لا تراحمها المدارس والمطابع والادباء بتأليفهم ومنشوراتهم العامة والسيارة على اللغة الفصيحة (2)

(4)

وليس ادل على قوة اللغة العربية من عبارة ارلست رينان ، في كتابه تاريخ اللغات السامية :

« ان من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديء ذي بدء ، فبدات فجأة في غاية الكمال ، سلسلة اي سلاسة ، غنية اي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها حتى يومنا هذا أي تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول امرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الاندلس اكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة ان يرجعوا سلوكهم بالعربية ليفهمها النصارى .

من اغرب المدهشات ان تثبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري عند امة من الرحل ، تلك اللغة التي فافت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها .

وكانت هذه اللغة مجهولة عند الامم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال الى درجة انها لم تتغير اي تغيير يذكر ، حتى انه لم يعرف لها في كل اطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا تكاد نعلم من شأنها ولا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تباري ولا نعلم شيئا عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة » .

ومن عجب ان يكون هذا رأي اهل العرب فيها ثم يقوم من ابنائها من ينتقص من قدرها ويلبسوا الى العاميات ويحاول ان ينتزعها من مكانتها العالية .

« ان في العربية سرا خالدا هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب ان يؤدي على وجهه العربي الصحيح ، ويحكم منطقا واعرابا بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيف بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤادها وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللعن الظاهر ، ثم هذا المعنى الاسلامي (الدين) المبني على الغلبة والمعقود على انقاص الامم ، والقيم على الفطرة الانسانية حيث توزعت وأيسن استقرت ، فالامر اكبر من ان يؤثر فيه سورة حمق او تأخذ منه كلمة جهل » .

« اما القرآن جنسية لغوية تجمع اطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم اليها واوجبها عليهم لما اضطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الأيام الى ما شاء الله ولما تماسكت اجزاء هذه الامة ولا استقلت بها الوحدة الاسلامية ثم تلاحمت اسباب كثيرة بالمسلمين ونضب بانهم ولم يبق الا ان تستلحقهم الشعوب وتستلحقهم الامم على وجه من الجنسية الطبيعية لا السياسية فلا يتبين من آثارهم بعد ذلك الا ما يثبت عن طريق الماء اذا انساب الجدول في المحيط » (1) .

(3)

ويرد الكثيرون على شبهة المقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية : بقول الاب صالحاني :

ان اللاتينية ماتت كلفة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت كلفة للكنيسة والعلماء . اما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الامكنة والازمنة والعناصر ، ولم تكن اللاتينية لغتها الاصلية وانما كانت اخرى : كالسليزية السكسونية والجرمانية الهندية ، وامتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات الا بتمادي الزمان وتنوع الكتبة وفتح المدارس وتآليف الكتب ، وساعد الشعوب في ذلك انفرادهم في امقاع متناحية ودول مستقلة، فاین كل ذلك

(1) البيان م 1913

(2) م المشرق ص 130 م 23 سنة 1965 .

فلسفة الحركات في اللغة العربية

الأستاذ أحمد الأخضر غزال

مدير معهد الدراسات والبحوث للتعريب

— الرباط —

ويلعبونه وحفاهه ولسانه وشفتيه فيخرج الكلام بكل
انواع اصواته الشديدة منها والمتوسطة والخفيفة
والثقيلة والطويلة والقصيرة الى غير ذلك من غرائب
خلق الله وعجائبه سبحانه تعالى عز وجل .

الاصوات اللغوية :

واذ لا حركة ولا سكون الا باذن الله فان
الاصوات التي يخرجها الانسان من جهازه لا يخرجها
بدون سبب كما ان لكل ما يصدر عن الانسان ولكل ما
يحصل له اسبابا منها المجهول ومنها المعلوم ، بله :
كل ما يقع ويحدث في هذا العالم بمعناه العام له
اسباب ، ولهذه الاسباب اسباب اخرى لها اسبابها
التي تنشأ عن أسباب ، منها المجهول ومنها المعلوم
الى غير ذلك من اسرار الطبيعة التي لا نعرف عنها الا
القليل . وعلم الاصاتيات بخبرنا بالحركات التي تؤدي
بالجهاز الاصوتي الى اخراج الصوائت (فونيمات)
التي تشكل الحروف ويجعلنا نقف عند حدود الفوارق
ومؤثراتها .

ففيما يخص صويته الباء بالنسبة الى صويته
الهاء مثلا نعلم جميع ما يحدث اثناء التلغظ بهاتين
الصويتين . فان صويته الباء يتطلب اخراجها
مجهودا اكبر من المجهود الذي يقتضيه اخراج
صويته الهاء ، لانه يفرض العمليات الآتية :

يحدث نشاط كيميائي وكهربائي تفاعلي داخل
المشتبكات (والمشتبكات هي الامكنة التي تشتبك

1 - القسم الاول :

من المعلوم ان اللسان هو العضلة الاساسية
التي نستعملها داخل الفم لاجراء الاصوات اللغوية
بمشاركة اعضاء اخرى خصتها طبيعة التركيب البدني
بالمساهمة في انتاج الكلام على اساس تبثق نفساني
بديع يتصرف في عمليات بدنية متسلسلة خلاصتها ان
موجات صوتية متتالية منشؤها ذبذبات فيزيائية .
تنتشر في الهواء وتدخل في الاذن فتتحول عندما تصدم
العصب السمعي الى سيالة (اي كهرباء بدنية)
تتسرب الى ملايير الخلايا الدماغية لتثير صورة سمعية
تنشأ عنها صورة بصرية . ويجب ان تكون الصورتان
متطابقتين تطابقا تاما والا حصل سوء الفهم . ويحدث
في الدماغ اثناء التفكير وقبل الرد بالجواب بموجات
اخرى ما يحدث فتنتقل من فم المجيب ذبذبات اخرى
تنشئ موجات بدورها تطير في الهواء وتصدم اذن
المستمع وتلتقي بعصبه السمعي فتتحول الى سيالة
اخرى وتصل الى وحداته العصبية لتثير صورته
السمعية يجب ان تكون صورتها البصرية مطابقة لها
مطابقة تامة والا حصل سوء الفهم من جديد . ويحدث
في دماغه ما يحدث من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية
والاحيائية (اي البيولوجية) والنفسانية والروحانية
والعقلية وغيرها ولا يدوم هذا كله الا مدة رمشة العين
قبل ان ينبث الامر بالاجابة فتتسرب بالسيالة من
جديد من المراكز والمناطق الخاصة بالكلام والسمع
والبصر لتحرك بواسطة اعصابها العضلات المتحركة في
اجهزة الكلام كالحنجرة واوتارها وغضاريفها وكالفم

المفوح وحاملا صوت الباء الجهيرة عبر الهواء الطلق
في شكل موجات صوتية .

هذه العمليات كلها بتناسقها العجيب وأنواع
حركاتها الدماغية والعصبية والعظمية الدقيقة هي
التي تتطلبها الباء ونحن غير شاعرين .

أما الهاء فلا شيء من ذلك فيها إلا خروج الهواء
انحامل ذبذبات التوترين الصوتيين بينما تكاد أعضاء
الفم تكون في حالة استراحة وارتخاء .

وما يحدث للباء خفيف بالنسبة إلى القاف والكاف
والراء والحاء والشين والصاد وثقيل بالنسبة إلى
الحاء والعين والغين والفاء والهنزة الخ ...

وإذا اشتد خروج الأصوات الثقيلة فذلك لسبب .
وإذا خف فذلك لسبب أيضا أرادته العقل ليعبر عن
الشدّة مع الأصوات الشديدة وعلى اللبونة مع الأصوات
الليونة ومثال ذلك : هف وقض ، فهفت الريح : هبت
فسمع صوت هبوبها ، وهب النسيم : خف وعصب
الرجل : أسرع في سيره والهف انخفيف من الناس ،
وكل شيء خفيف لا شيء في جوفه والسمك الصغار ،
وسحاب هف : رقيق لا ماء فيه . بينما نرى في قض
ما يلي : قض عليهم الخيل أرسلها ونشرها وقض
الحائظ هدمه هدمًا غنيًا وقض الودّ : قلعه وقض
الشيء دقه وقض السير أو الوتر ، سمع له صوت
كأنه قطع إلى غير ذلك من المعاني . فكأنما خفت في
خف اشتدت في قض .

وهناك فكرة أخرى وهي فكرة الاستعانة ،
استعانة الصوت بالنسبة للمدلول . فإن كان صوت
الهاء لا يتطلب نفس الجهد الذي تتطلبه القاف والراء
مثلا فإن أصوات الحروف وانغامها ورنينها وأجاسها
موضوع استحسان أو استخسان من طرف الإنسان
(انظروا هنا إلى الفرق بين مادة حسن ومادة خشن ،
فالحاء لطيفة والحاء ثقيلة) فلكل لطيف وانيق وجميل
وحلو ومطرب ومفرج ومسمد أصوات لطيفة لينسة
وموسيقية ، ولكل خشن وثقيل وخبيث وبشع ومقلق
ومحزن الخ .. أصوات تناسب تلك الصفات بمعاني
أصواتها .

وهذه الأفكار انتبه إليها فقهاء اللغة القدماء
فخصصوا لها أبوابا مشهورة عنوانوها بمطابقة اللفظ
للمعنى ، ومن أشهرهم في هذا ابن جني ، كما ألفوا
فيها كتباً أشهرها قاموس مفاتيح اللغة لأحمد ابن
فارس ، إلا أن علماءنا المحدثين ممن تتلمذوا على

فيها الاستطلاات الشعرية الخاصة بالوحدات العصبية
التي تنساب معها السيلة العصبية ، وهذه المشتبكات
تشبه مرآة كهربائية (أي بطاريات) فيها عدة خلايا
في كل واحدة منها مادة كيميائية أساسها الكالسيوم
والبوتاسيوم والصوديوم وأنواع مختلفة من العناصر
النادرة كالحديد والمنغنيز والبور والماغنيزيوم
والكوبالت الخ ... والكلى منمات (ذائب) في سائل
خاص يسمى الخليل المراري (الاستيلكولييسن)
والتفاعل الكيميائي الذي يحدث في هذه المشتبكات
يخلق الكهرباء الخاصة بالبدن وهي السيلة . وهذه
السيلة مهمتها حمل الإهجات (أي الطلقات العصبية)
إلى الوحدات العصبية الأخرى أو إلى أجهزة التنفيذ
المحيطة كالعضلات مثلا . وفيما يخص نقطة موضوعنا
بالضبط تتسرب طلقات سيالية نحو عضلات الحجاب
الحاجز لترتفع الاضلاع فتنتفخ الرئتان إذاك ويحدث
امتصاص للهواء الخارجي الذي يتسرب إليهما من
منفذ الأنف أو الفم أو منهما معا - بعد أن حصلت في
مشتبكات أخرى من الدماغ عمليات أخرى لأمر عضلات
الفم بفتحها - فينساب الهواء مع الرغامي (أي القصبة
الرئوية) إلى القصبتين اللتين تشعبان في الرئتين ،
وذلك بعد حدوث إهجات أخرى في الدماغ أمرت
عضلات الحنجرة بإبعاد التوترين الصوتيين الواحد عن
الأخر لينفخ المجال أمام الهواء الجاري نحو الرئتين -
ثم بعد ذلك تنطبق الشفتان الأحدى على الأخرى عندما
تضغط الرئتان الهواء ليفر منهما متسربا مع الرغامي
فيجد الأوتار الصوتية قد تباعدت لتسمح له بالمرور
فيصل إلى البلعوم وعند ذلك أو قبل ذلك بقليل يرتفع
الحفاف بلهاته وينطبق على منفذ الأنف ليسده مانعا
الهواء من التسرب منه حتى لا تحصل الفنة في صوت
الباء ثم يصل هذا الهواء إلى الفم ويريد النفوذ من بين
الشففتين فيجدهما منطبقتين كما أسلفنا فيصدمهما
ويحاول تفريقهما فتزداد حركة عضلات الشفتين تقلصا
ويزداد انضمام الشفتين شدة لمنع الهواء من الخروج
ويشتد ضغط الهواء على الشفتين وعلى الشدقين
وعلى الحفاف وكل هذه الأعضاء تقاوم ذلك الضغط
بالتقبض والتقلص ، وإذا بالتوترين الصوتيين يقتربان
ويشرعان في التدبذب لإنشاء ما يسمى باللحن
الحنجري الذي سيجمل من حرف الباء حرفا مجهورا
لا مهموسا فتحصل إذاك عملية الترنن وهي فزيائية
محضة ، وفجأة تباعد الشفتان الأحدى عن الأخرى
وينفث الهواء المضغوط بعنف وشدة خارجا من الفم

العلماء الاوربيين اقلعوا عن هذه الابحاث النفيسة لانهم عملوا بنظريات العلماء الغربيين الذين فشلوا في بحث هذا الموضوع ولا غرابة ، لانهم لهم يحافظوا على لغتهم الاصلية فاصبحت لغاتهم خليط لهجات لا تطابق طبيعتها عبقريتهم ، اذ لكل شعب خصائصه اللغوية لا سيما في موضوع الاستغاثة ، فهذا الشعب الالمانى مثلا يستحسن صوتية الخاء وصوتية الراء الرنانة ، بينما الشعب الفرنسى يستحبها . وهذا الشعب الانكليزي ينفر من « تغنين » الانكليزية ، بينما الشعب الامريكى يستحسنها - وبينما لا نرى شعبا اوروبيا يجيد صوتية (u) اذا بالشعب الفرنسى يكثر منها - وتغلب صوتية الشين فى البرتغالية ، كما تغلب عملية التفعير البلعومي فى اللغة الروسية ، وما احنى صوائت الحاء والهاء فى اذننا ، وما اقبحها فى اذن غيرنا الخ . . من الاعتبارات التي يرجع سببها الى اختلاف الذوق .

لهذا كله لا تصح هذه النظريات الا فى موضوع لغة اصيله بالنسبة الى شعبها الاصيل ، ومعنى هذا انها لا تنطبق على الالفاظ الدخيلة والاجنبية مع مراعاة التفاوت داخل شعب واحد ، ومن قبيلة الى قبيلة ، ومن بطن الى بطن ، ومن حي الى حي ، وحتى من عائلة الى عائلة ، ومن أسرة الى أسرة .

ولا ننتظر الوصول الى نظرية شاملة قائمة على اسس متينة فى مدة قصيرة لان فى هذا المطلب من التداخل بين الاصوات باعتبار الحقيقة والمجاز وباعتبار الاقدمية والاحداثية وتغير الصوائت عبر التاريخ بالنسبة الى اللهجات العربية من جهة وبالنسبة الى تغير الدلالات من جهة اخرى مما هو فى الحاجة الى تضافر الجهود وتبادل الخبرات وتوفير اجهزة المد والاحصاء والترتيب والتصنيف الشيء الذي ينقصنا اليوم . وقد يتبادر الى الذهن ان هذا العلم فى تناول اي شخص اذا ما اعتمد على الملاحظة والمقارنة بوسائله الخاصة . كلا ! وحذار ثم حذار ! لان اجدادنا اللغويين وهم المعروفون بالدقة والاجتهاد وسعة الباع ان اجادوا فى بعض هذا العلم فان وسائل نقصتهم فتوهموا فى بعضه الآخر .

واذا كانت الحروف تتكون من الصوائت فان الكلمات تتكون من الحروف . واذا كان لكل حرف معنى فان مجموع معاني الحروف يؤدي الى معنى الكلمة ومجموع معاني الكلمات يؤدي الى معنى الجملة ، وهنا قال علماءنا بمطابقة التراكيب للمعاني كذلك وقالوا ان

الزيادة فى المبنى زيادة فى المعنى . بدون اعتبار دوران الحركات فى الاوزان . فبحر جمعه بحور وبحار وابخرة واباحير وابجار ، والبحر قليل التركيب لانه يدل على المفرد وجموعه أطول منه لانه يدل على الكثرة . ولكن تحديد المعاني بالتراكيب اختلف فيه كما اختلف فى ما سبق لعدم توفر مواد البحث فى ما وصل اليه العلم الحديث . الا انهم تركوا هذا الموضوع لتعقده واشكاله فلم يعيروا الحركات الاهمية التي تستحقها وغلبت عليهم نظرية السماع والقياس التي كانت سائدة فى العلوم اللغوية آنذاك مما ادى الى ما يسمى اصطلاحا بالعامل المؤثر باعتبار متن اللغة او فى ما هو ضمنى باعتبار الاعراب . كل ذلك لغاية واحدة هي المحافظة على التراث اللغوي وعلى القرآن ورفع اللحن الذي كان قد انتشر بصورة مهولة . اصف الى ذلك انه كلما ثبت عند بعضهم القياس الا واضعفته شواهد سماعية شاذة مما ادى الى بليلة الافكار واللجوء الى السماع مع الإبقاء على فكرة القياس رمزيا لان احدا من القائلين بالقياس لم يجرؤ على تغيير ما أصبح شائعا من اللغة واحلال القياس محل السماع . فيقدر ما درسوا معاني الحروف وتوفقوا فى بعض نواحيها بقدر ما فشلوا فى معاني الحركات ولم يصلوا الى نتيجة علمية تجعلهم يشيدونها بمثابة قاعدة . فكلهم قالوا عن الفتحة انها اخف الحركات العربية لذلك كثرت فى اللغة وقالوا عن الضمة انها اثقل من الفتحة وقالوا عن الكسرة انها اثقلهما . اذن بنوا حكمهم فيما يرجع الى الحركات على اساس سمعي لا جسماني كما فعلوا ذلك فيما يخص الحروف . وهذا الاساس السمعي هو الذي سنحاول الكشف عنه :

فجاء ابراهيم مصطفى فى عصرنا الحديث والف كتابه المشهور « احياء النحو » الذي كان له اكبر صدى فى هذا الميدان فعلن الفتحة بانها اخف الحركات وانها تدل على شيء وعلل الضمة بانها علم الاسناد ودليل على ان الكلمة المرفوعة يراد بها الاسناد اليها والمحادثة عنها . اما الكسرة فانها علم الاضافة ، واشار الى ارتباط الكلمة بما قبلها سواء كان هذا الارتباط باداة او بغير اداة ، وقال ابراهيم انيس بعدم معاني الحركات فى الاعراب (انظر اسرار العربية) وقال المخزومي : ليست الفتحة علما لشيء خاص ولكنها علم كون الكلمة خارجة عن نطاق الاسناد (الذي هو للضمة) او الاضافة (الذي هو للكسرة) وان الفتحة هي الحركة الخفيفة المستحبة التي يهرع اليها العربي ما وجد الى الخفة سبيلا ، وهو رأي الخليل وسيبويه ، واما ابراهيم

السامرائي فانه يقول في الفتحة انها وجدت في كثير من اللغات السامية الا انه سرد اقوال « مارسيل كوهن » و « يوهان فوك » الذين يثبتان بأن اللغات السامية كان لها اعراب ، ولم اعثر على نظر له في هذا الموضوع . اما اثبات الاعراب فانه جاء في معظم كتب اللغة من صاحبي والمزهر الى كتب فقه اللغة الحديثة .

ومن الذين عالجوا هذا الموضوع عبد الله العلايلي الذي قال : « باب ضرب يضرب » يخضع له التلبس بحركة الفعل في الزمن الحاضر ، بينما الخمسة الاخرى فلافادة معنى زائد . . . فاذا اردت الدلالة على التفوقية او التركب فسوق الدلالة على التلبس بالحال الفعلية تنقل الفعل الى باب نصر ينصر ولذا طرده اللغويون في المفارقة والمبالغة (فامرته فقمته فانما اقمه) واذا اردت الدلالة على التقلب والانسراح تنقل الفعل الى فتح يفتح ولا تلق بالا الى ما اشترطه اللغويون من ان هذا الباب خاص بما كان عينه اولامه حرف حلق فهو تقدير واهن . . . واذا اردت الدلالة على التغير خلوا وامتلأ وجودا او عدما تنقل الفعل الى علم يعلم . . . واذا اردت الدلالة على الرسوخ والطبع تنقل الفعل الى حسن يحسن واذا اردت الدلالة على التجزؤ (والتقسم تنقل الفعل الى سباب ورث يرث) انظر المعجم للعلايلي .

وهذه الاقوال كلها اما تكرير لما قاله القدماء واما استنباط منها ، اذ قالوا اجمالا ان « فعل » يفتح العين لمعان كثيرة لا تنضبط ، منها القلب : قامرني فقمته اقمه اي اقلبه في القمر ، ومنها ان افعال الحدوث تدرج تحت عنوانه - بينما فعل يشمل افعال الفرائز والطبائع فيدل على لزوم مداولاتها لان ما يقتضيه الطبع يدوم بدوامه وتكثر فيه العلل والاحزان واضدادها . . . وتجيء في غير فعل الا انها فيه اكثر منها في غيره ، وفعل للطبائع وهي الافعال اللازمة الصادرة عن الطبيعة وهي القوة الموجودة في الشيء التي لا شعور لها بما يصدر عنها ، وخص الضم بها لانضمام الطبيعة الى الذات عند صدور هذه الافعال منها كانضمام الشفتين عند خروج الضم منها .

وفي الحرف الاول من الفعل قالوا : لما كانت العرب لا تبتديء بساكن فلا تكون ساكنة فاؤه ساكنة ولا تكون مكسورة - الا للضرورة وذلك عندما يكون الفعل اجوف وبني للمجهول او من باب فعل وهو اجوف كذلك وتضم كذلك في الاجوف من باب فعل لا غير - اذن لا تكون مكسورة لقوة الكسرة وهو قليل

لانه يتغير وليس بتأنيث كالاسماء . ولا تضم الا اذا بني للمفعول . فيبقى الفتح في فاء كل فعل ماض - اما الحرف الاخير فهو مبني على الفتح الا اذا طرا عليه ما يضمه او يسكنه . وحرف الوسط فقد ذكرنا ما جاء عندهم فيه .

ونستنتج مما سبق انه ليس هناك قاعدة عامة يطمئن الفكر اليها ويركن وان السماع هو الاساس بيد انه اذا تتبعنا اجزاء معالجة معاني الحروف ، معاني الحركات قد نهتدي الى شيء مضبوط ناتج عن الاحضاء من جهة وعن اعتبار قانون الجهد والكسل المهيمن على كل ما هو من قبيل تصرف الانسان في عميق حياته . اذ منذ ان ظهر الانسان على البسيطة الا وحاول وما يزال يحاول ان يوفر لنفسه اسباب الحياة بأقل جهد ممكن مما ادى به الى هذه الاختراعات العجيبة التي يريد تسخيرها لخدمته ليعيش سعيدا والسعادة لديه معناها الحصول على كل ما من شأنه ان يلبي رغائبه وحاجاته وآماله بلا تعب ولا مشقة . اضاف الى ذلك ان له نشاطا عقليا جعله يتصور العالم بصورة مختلفة باختلاف الاغراض والهوايا والاماني والخيال والشعور وبما يؤثر به على الطبيعة وعلى غيره من البشر وبما يتأثر به من الطبيعة ومن المجتمع . ومن الاسباب التي دفعتنا الى تركيز البحث على معاني الحركات التناقض الظاهر في مدلولاتها .

فهذه لغة - العربية تبدو لك في كتابتها مبنية على اساس حروف صامتة وهذه الحروف لا تصوت الا مع علامات خاصة توضع فوقها او تحتها وهذه العلامات لا تنطق وحدها لانه لا يوجد في العربية معنى يفاد بصوت حركي مفرد كما هو الشأن في اللغات الاوروبية حيث « او » (ou) مثلا تفيد مدلول المكان ، او التخير يعني انه لا يوجد لفظ مكون من حركة واحدة والكلام كله صوائب (جمع صويته = فونيم) مركبة من حروف مع حركاتها لا من حروف وحدها ولا من حركات وحدها فالكلام عند العربي من كلم اي جرح وشق بمعنى فتح - الصمت) فهو مكاشفة ومباشرة من الكشف اي رفع الستار عن المختبئ ومن البشر اي الشق والفتح - والعربي يعتبر ان الانسان في سكوت وسكون وهذوع بالنسبة الى العالم الذي يعيش فيه وبالنسبة اليه اي الى وضعه فيه ، فهو يكلم هذا العالم الغريب عند التعبير كما يفطر ذلك الصمت الذي هو الصيام ، لذا سمي انطارا من فطر اي شق وقطع ، الله فاطر السماوات والارض اي خالقها من فعل خلق اي شق : خلق وخرف وخرج وحرك الخ . والحركة

الفم من العض والقطع للمأكولات وهذه العملية عملية
 افعال الفم - هي أساس حياة الرجل لتلبية حاجته
 الأساسية ليعيش اما ابعاد الفك السفلي عن الفك
 العلوي فتقوم به ثلاث عضلات كذلك الا انها ضعيفة ،
 وهي ذات البطنين Digastrique والفرسية
 الامية Mylohyoïdien والدقنية الامية
 Géniohyoïdien فعملية الافعال اذن بفضل
 عضلاتها القوية اسهل وأيسر من عملية الفتح الضعيفة
 العضلات فاخراج الفتحة اصعب من اخراج الضمة
 التي تقتضي فتحا اقل من الذي للفتحة وهي اصعب
 بدورها من الكسرة التي تقتضي انفتاحا قليلا للفم حتى
 ان صوته الكسر قد تخرج ويكاد الكفان يكونان -
 منطبقين الواحد على الآخر وفي الحقيقة اذا قال
 القدماء بخفة الفتحة وتقل الضمة والكسرة باعتمادهم
 على ظاهرة الجمال الصوتي فذلك له اساس في اعماق
 الانسان الا وهو الكلام المفتوح يروق لما يوحى به من
 حركة ونشاط وحيوية وارادة بالنسبة الى الكلام
 المكسور الذي يشير الى الانهزام والخضوع والرنوخ
 وبالنسبة الى الضم الذي يدل على التراكم والتفاقم
 والسكون والركود .

واذا تمهلنا في هذه النظرية وتاملناها تأملا
 متندا عميقا في حد ذاته ثم بالنسبة الى اصول اللغة
 لا الى فروعها وأخطائها وشائنها ، وتبصرنا امورها
 الباطنية اعتمادا على فلسفة الحركات بالنسبة الى
 البدن البشري وطبقناها تطبيقا محكما ، امكننا اذاك
 ان نشيد نحوا جديدا منطقيا يكشف لنا الستار عن
 النحو القديم الاصيل الذي بنى عليه العرب القدماء
 لغتهم فأصبحت مطابقة لاغراض عقلم وشعورهم
 واحاسيسهم اي بكلمة واحدة مطابقة للحياة ، اذا فعلنا
 هذا ستصبح اذاك العربية اسهل اللغات بالنسبة الى
 العقل اي بالنسبة الى ما يريد العقل التعبير عنه
 فيمكن حينئذ ان نسترجع ملكة اللغة العربية التي
 ضاعت وبضياعها انزوت في السماع اي في الحفظ
 بخطئها وصحیحها بدون معيار للتمييز بين الصالح
 والفاقد وبين التطور الدائر المتكرر والتقدم القاصد
 الهادف الى الكمال .

الامثلة :

خذوا مثلا مادة « دخن » التي جاءت منها الابنية
 الثلاثة : دخن ودخن ودخن ، فانكم تجدون ما يلي :

اما يقوم بها الانسان واما تحصل له من غيره من البشر
 الذي يعيش معه او من العالم الذي هو فيه بالنسبة
 الى عناصره من ريح ورعد ومطر ونار الخ ... فهو اما
 مؤثر على العالم واما متأثر به . فالعربي . بهذه
 الفلسفة التي تتجلى في لغته واضحة لانه حافظ نسبيا
 على اوضاعها بينما نراها اندرست في اللغات الاخرى
 يرى العالم في ابعاد ثلاثة كما ان لغته مبنية على ثلاث
 حركات ، حركة الفتح أي التأثير على العالم الخارجي
 وهو عمل صادر عن الارادة ، مثل ضرب وقتل وخرج
 ونطح وقطع واكل وفتح ودخل وصرع الخ .. وكلها
 افعال مفتوحة العين لان الفتحة تدل على العمل الصادر
 عن الفاعل بارادة منه حقيقة او مجازا - ثم حركة
 الكسر أي التأثير الذي يحصل للفاعل من طرف العالم
 الخارجي ، فالكسر والخسر والقصر والخزل كلها
 بمعنى حصول الشيء للفاعل المغلوب المقهور . فالفعل
 المكسور العين يدل على كل ما يحصل للفاعل بدون
 ارادة منه حقيقة او مجازا مثل مرض وحزن وعطش
 وعلم وفرح وسقم وغرق وعسور وحذب وجزع الخ ..
 ثم الضم (والظم والتم وكلها تدل على التجمع والكثرة
 والدوام والثبات) ك : حسن وخشن وكبر وصغير
 وقرب وعرج وعور ودخن وشرف وكلها بمعنى حصول
 الشيء للفاعل لا حصولا طارئا أو مؤقتا كما هو في
 فعل بل بكثرة ودوام وثبات ونهاية . كل هذا مبني على
 اساس قانون الجهد والكسل الذي اشرنا اليه . فيما
 ان الحروف بشدتها ورخاوتها ، برخومتها وخشونتها
 تصدر عن الانسان للدلالة على الشدة والرخاوة والرخومة
 والخشونة في الاشياء ووصافها فان الحركات كذلك
 يجب ان تعتبر على هذا الاساس الجسماني الا ان فكرة
 الثقل والخفة بالنسبة الى الاذن حسب ما ذهب اليه
 الافدمون فكرة ناقصة لانها مبنية على ظاهر اللفظ لا على
 باطنه المحرك الذي هو النشاط العصبي الدماغى
 بالنسبة الى تحكم الانسان في كلامه . واذا كان ذلك
 كذلك فلنا ثلاث حركات تقوم بها اعضاء الكلام لاخراج
 ثلاثة انواع من الحركات : الفتحة والضمة والكسرة
 التي تتصرف في جميع اللغة ، فلماذا الفتحة تدل على
 العمل الارادي ؟ لان فكى الفم عند اخراج صوته الفتحة
 يتعدان الواحد عن الآخر . وما الذي يبعدهما ؟ ثلاث
 عضلات : الاولى عضلة قوية جدا عريضة وغليلة تسمى
 الماضفة Masseter وعضلة ثانية تساعد الاولى
 وهي الجناحية Pterigoïdien وعضلة ثالثة
 هي الصدغية Temporal تساعد الثانية
 اذن ثلاث عضلات قوية لرفع الفك الاسفل حتى يتمكن

دخن (بفتح العين) الدخان : اذا سطع وارتفع .
وهنا تشخيص للدخان وكأنه يرتفع بارادة منه .

ودخنت (بفتح العين) النار : ارتفع دخانها
(اي اطلقت الدخان فارفع . وهنا تشخيص كذلك
لفعل الفعل اراديا) .

ودخنت (بكسر العين) : القى عليها حطاب
فأفسدت فهاج دخانها (والمعنى واضح ، أي حصل لها
الدخان وأصبحت به فأصبح الدخان يحصل لها ويؤثر
عليها) .

ودخن (بكسر العين) الطعام واللحم وغيرهما :
اذا اصابه الدخان في حال شبه أو طبخه حتى تغلب
رائحة الدخان على طعمه (وهنا معنى الحصول واضح) .

ودخن (بكسر العين) الطبخ اذا تدخنت القدر -
وشراب دخن (بكسر العين) : متغير الرائحة (اي
بالمعنى الحقيقي رائحته هي رائحة الدخان وبالمعنى
المجازي : لم تبق رائحته الاصلية فتغيرت واطلق
اللفظ على سبيل العموم) -

ودخن (بفتح العين) الغبار : سطع وارتفع اي
كما يسطع الدخان يسطع الغبار) -

ودخن (بكسر العين) خلقه : ساء وفسد وخبث
(بمعنى حصل لها السوء والفساد والخبث) ودخن
(بضم العين) النبت ودخنت (بضم العين) الدابة
دخنة مثل دخن (بكسر العين) (يستخلص منه الثبات
والدوام على حالة الدخنة اي الكدرة يعني صار نهائيا
في ذلك اللون أو لم يستطع الصبر على كثرة الدخان) .

واذا اخذنا مادة اخرى فيها الابنية الثلاثة مثل
« ش ر ف » ومعناه العلو نرى ما يلي : شرفه (بفتح
العين) : غلبه في الشرف . وشرف (بفتح العين)
الحائط : جعل له شرفه ، وشرفت (بفتح العين)
الناقة : صارت شارفا (اي على سبيل التشخيص

علت وارتفعت في السن) وشرف (بكسر العين)
الرجل : دام على اكل السنام (بمعنى غلبت عليه
شهوة اكل السنام اي الشرف وهو السنام أصلا من
نفس المادة) وشرفت (بكسر العين) الاذن وشرف
(بكسر العين) المنكب : ارتفعا اي شرفا (بكسر الراء)
اي صار مرتفعين - وشرف الرجل (بضم العين)
صار ذا شرف (اي في حالة ارتفاع وعلو تبنت فيه
واصبح يتصف بها) وشرفت (بالضم) الناقة : صارت
شارفا (والفرق بين شرفت الناقة (بالكسر) وشرفت
(بالضم) واضح فالاول ملحوظ الوصف بعد عدمه
والثاني كثرته وتراكمه ودوامه حتى اصبح في اعلى
درجة منه) .

وفي مادة « حزن » حزن (بالكسر) حزنا وله
وعليه : ضد سر أي حصل له الحزن - وحزنه (بالفتح)
ضد سر (لغة تميم وهي عندي أقرب الى الاصل
العربي من لغة الحجاز) ، ولم يرد « حزن » (بالضم)
في الاستعمال تلافيا للطيرة مع أن مصدره حزونة بقي
مستعملا بالمعنى الحقيقي وهو غلاظة الارض وشدهتها .

وفي مادة « بشر » بشر وبشر بالثبوت وجهه
خرج به بشر : (والمفهوم الضمني المعاقبة بين الثاء
والزاي : « بز » والمعاقبة بين الثاء والصاد : بصر -
ومراعاة القلب المكاني : ثبر - فباتينا منه معنى القروح
ومعنى الكثرة ومعنى نوع من الارض . واذا وقفنا على
المعنى الاول فمفاده : بشر (بالفتح) وجهه : اخرج بثورا .
وبشر (بالكسر) وجهه حطت له بثور . وبشر (بالضم)
وجهه وهو : أصبح ذا بثور فهناك تدرج واضح في
المعاني بين فعل (بالفتح) وفعل (بالكسر) وفعل
(بالضم) وذلك في الافعال كلها .

وباعتبار هذا كله نصل الى الحقيقة الاتية وهي
ان العربي كان ينطق حسب ما في دماغه من اغراض .
واللغة العربية - داخل حدود نظريات وقواعد ثابتة -
اداة تمتاز بطواعية للتعبير عن جميع ما يختلج الفكر
لا ميل لها في أي لغة من لغات هذا العالم .

التعريب والتفتح في المغرب العربي

للأستاذ محو وعبد الوهاب

«تونس»

— ان التفتح شطر اللغات الحية والحضارات المتقدمة يجب ان يكون مدروسا — لا متروكا للصدف ، لكي يلعب دوره المكمل الفعال لثقافتنا ولقننا وأصالتنا .. والا انقلب الى خطر ماحق يهدد شخصيتنا وكياننا الاجتماعي والثقافي ، بالمسح ولذبذبة ... كما نرى — لا تناقض بين قيمنا القومية وقيم الاممية في مضمار الاصاله والتفتح . نستطيع ان نأخذ عن الغير العلم والتقنية والثقافة المتقدمة وذلك بتعلم بعض اللغات الاجنبية الحية بدقة واتقان — اذا أمكن — وفي نفس الوقت نتمسك بمقومات شخصيتنا العربية والاسلامية حيث تكون اللغة العربية والفكر الثوري من عناصرها الاساسية ، هذا في رأيي هو الانفتاح المنشود . اما الاختصار فقط على الاخذ من فرنسا وحدها عن طريق لغتها وثقافتها ، فهذا هو التحجر والذوبان معا .

انه التحجر لان فرنسا هي في الواقع تعتبر في خصوم بعض المبادئ العلمية والتكنولوجية متخلفة بالنسبة لعدد من البلدان المتقدمة كأمريكا وانجلترا وروسيا وألمانيا ... الا انها تعتبر طبعاً — متقدمة تقنيا مهولا — بالنسبة للبلدان المتخلفة جميعها . ليس من الافضل لبلدان المغرب العربي ان تستفيد من اختصاصات — هي في حاجة اليها — ولا تجدها في فرنسا بل في بلدان اخرى متقدمة ، سواء كانت في الشرق الاشرقي او الغرب الراسمالي ؟ .. اذا كان الجواب بنعم ، فلا شك ان تعلم لغة من اللغات

ينحدث الناس كثيرا ، هذه الايام عن الانفتاح او التفتح ، حتى غدت هذه الكلمة مبتدلة واصابها ما اصاب بعض العملات ، اثناء الازمات الاقتصادية ، من تضخم قد قضى على جزء ضخم من قيمتها اشرايية .

ولا نعدو الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان كلمة انفتاح او تفتح او تعصير ، أصبحت ، في قاموس البعض ، تملأ لانهام كل من انبرى للدفاع عن حظوظ اللغة والثقافة الوطنية ، بالتحجر والزمالة والانطواء على النفس ...

وبهذه المناسبة ، ونحن نضع بعض ملاحظتنا حول « جدلية التعريب والتفتح » او جدلية « الاصاله والتفتح » — تؤكد لادعاء الانفتاح والتفتح والتعصير — دون ذكر اسمائهم — ان كل من يعتز بلغته وأصالته الثقافية والقومية بطريقة ، ثورية وموضوعية ، بإمكانه ان يستفيد من عملية الاخذ والعطاء مع الحركات الفكرية والعلمية في العالم . وذلك على شرط ان تكون اللغة والاصالة الحضارية والاجتماعية هي الاصل والمنطلق ، لكل عملية تفتح عبر اللغات والحضارات الاجنبية . لذلك لن يتم هذا الاخذ والعطاء الخصب الا في شروط موضوعية معينة منها :

— تحريك قيمنا الحضارية الخالدة — وتراثنا الثوري الحاضر ، وربطها بالحركات الفكرية والعلمية المتقدمة في عالم القرن العشرين .

الحية كالانجليزية او الروسية او الالمانية ...
امر لازم .

ان افتاح مغربنا على العالم المتقدم - عن طريق
لغة او لغتين من هذه اللغات الحية سيساعده - دون
ريب على الخروج من معركة التخلف بنجاح للانطلاق
بعد ذلك - الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية
والاشماع الثقافي والعلمي والتكنولوجي ...

وهو ذوبان وتحلل لشخصيتنا وخصوصياتنا
القومية والحضارية اذا استخدمنا اللغة الفرنسية
كلغة شبه رسمية واهملنا اللغة العربية .. لان الانفتاح
على الثقافة الفرنسية او على أية ثقافة اجنبية اخرى
يجب ان يمر عن طريق عروبتنا كما اكد ذلك العالم
الاجتماعي الفرنسي جاك بارك (Jacques Berque)
في عبارته الشهيرة :

«La francité du Maghreb passe par son arabité»
لذلك طالب المثقفون في تونس والمغرب الأقصى
قبل الاستقلال وبعده بالتعريب والاصالة الثقافية
لا لاسباب عاطفية ، وانما لانه المطمح الطبيعي
والشعبي ، والسبيل الوحيد الى تحقيق ذاتيتنا
ونهضتنا ، والمنطلق السليم نحو وحدة مغربنا العربي
كخطوة نحو وحدة وطننا الاكبر ...

الواقع ان موضوع الاصالة والتعريب هو موضوع
له حساسية خاصة ويتطلب منا قدرا كبيرا من
الموضوعية والشجاعة . قد يحدث التباس في الاذهان ،
ونحن نثير الاسئلة والتساؤلات حول قضية الاصالة
والتعريب ، قضية الساعة في مجتمعنا ، هذا
الالتباس يتمثل في ان الفرض من اثاره مشكلة
التعريب في تونس او الجزائر او المغرب الأقصى هو
احراج المسؤولين او التهمج على هذه السياسة
التربوية او تلك . لكن الذي حدا بنا الى معالجة هذه
القضية المصيرية هو حرصنا على بناء المغرب الكبير
على اسس متينة ، كخطوة مرحلية نحو بناء الوطن
العربي .

فالواجب يفرض علينا التقيد بالنزاهة والموضوعية
لجوانب حياتنا اللغوية والثقافية وغيرها كلما شعرنا
بان هناك خطرا يهدد كيانا . ان اسلوب السكوت
والتغافل الكاذب هو بمنزلة الخيانة لانه يقضي على
امل شعوبنا في التقدم والتحرر والوحدة .

نحن لا ننكر ان موضوع التعريب والاصالة هو
موضوع خطير ، قد حفت به ملاسبات سياسية

وادبولوجية ونفسية لا تخفى على احد . واذا صرحنا
انفسنا وضماننا ، فهو . في حقيقة الامر قضية
مصيرية تتحكم فيها السياسة والاقتصاد ، بحيث
تتجاوز امكانيات رجال الفكر والتربية والثقافة في
المغرب العربي . والراي عندنا ان الحل الجذري
لمشاكل كثيرة يتخبط فيها مجتمعنا المغربي اليوم ،
يمكن في تبني سياسة التعريب الشامل والمرحلي .
فهل لنا ان نعرب ؟ وهل لنا ان نجعل من لغتنا
القومية ، لغة المدرسة والادارة والشارع ، والانتاج
الفكري والعلمي ... ؟

اذ لا يمكن ، اطلاقا عزل المفهوم السياسي
لعملية التعريب عن مفهومها الثقافي ، فكلاهما وجهان
لعملة واحدة !!

لذلك ونظرا لشعب قضية التعريب ، باعتبارها
قضية سياسية ومجتمع ، وحضارة ، ولغة ، وشعب
ومثقفين ، وهي مطروحة اليوم بثقلها الكامل والملح
على الصمغيين الرسميين والقوميين ...

لذلك ونظرا لكل هذه الظروف والملاسات
الادبولوجية والنفسية التي تحف بالتعريب لا يسعنا
الا ان نؤكد الحقائق التاريخية التالية :

اننا لا ننكر ابدا المشاكل والصعوبات
النفسية والمادية التي تعرقل سير قطار التعريب ،
خاصة ونحن نعلم ان الاوضاع الاستعمارية التي
رزحت تحتها بلادنا ، قد فرضت علينا واقعا ثقافيا
واقتصاديا واجتماعيا متخلفا . ان هذه التركيبة
الاستعمارية الثقيلة والبيضة قد عكست على حياتنا
الاجتماعية ارتباطا لغويا وثقافيا خطيرا .

كان هدف الاستعمار في العصور الحديثة
سواء كان فرنسيا او انجليزيا يرمي الى تمزيق
وحدة الامة العربية وتقسيم الوطن العربي الى
دويلات وكيانات سياسية عديدة ، وذلك لغاية
السيطرة على مقومات هذه الامة بجماهيرها
الكادحة ، اقتصاديا وثقافيا ولغويا ...

وكان من نتائج هذه السياسة الاستعمارية
الادماجية في المغرب العربي الكبير بخاصة ، هو
تجهيل الجماهير بلقمتها وتاريخها وواقعها ... ومن
هنا كانت وضعية شعوبنا المغربية مطابقة للحقيقة
العلمية التي صدع بها ، منذ قرون عديدة العلامة ابن
خلدون وهي تؤكد بان « الامة الغالبة تفرض على
الامة المغلوبة حضارتها ولغتها .. » .

لذلك فواقع اللغة العربية يعود تفسيره لظروف تاريخية وحضارية . بدأت اثر عصور الانحطاط والظلام ، وبخاصة فى بداية العهد التركي ، ثم تطورت الامور عندما حاولت عائلات دخيلة محاربة اللغة العربية وذلك كخطوة نحو تتريك الاقاليم العربية . وكلمة تتريك هي كلمة دارجة حتى اليوم فى بعض اللهجات العربية فى المغرب وتونس وتعني مثلا العبارة : « يحب بتركني » معناه « يريد أن يهلكني » (1) . من هنا ندرك العلاقة المعنوية بين عملية مسح العرب الى اترك عثمانيين . وعملية الهلاك والاهلاك .

ان عملية التتريك هذه قد نادى بها - كما نعلم - وحاول تطبيقها دعاة الطورانية من جماعة

تركيا الفتاة . اما فى المغرب باقطاره الثلاثة ، فقد قامت محاولات شرسة على يد الاستعمار الفرنسى ، ترمي فيما ترمي اليه : الى الفرنسة والادماج ، واحلال لغة المستعمر وثقافته محل اللغة العربية وثقافتها .

لذلك اكد المثقفون المغاربة - مرارا وتكرارا - ان لغة المستعمر ، بما تحويه من ثقافة وتقاليد لا تتماشى مع متطلبات السيادة الوطنية ولا تنسجم مع مقومات الشعب العربي فى تونس والمغرب الاقصى والجزائر . وانما هي - بالعكس من كل ذلك - تمسح او بإمكانها ان تسمخ - شخصيته وتلهيه عن مشاكله الحقيقية .

(1) كلمة « تركية » بتشديد الراء معناها فى عامية المغرب الاقصى : سلب او نهب كل ما يملكه ، وكان « المتترك » (يفتح الراء وتشديدها) مات فصارت تركته تحت رحمة السالب . ومن هنا يتضح اشتقاق الكلمة العامية من الفصحى ، كما يتضح من استعمالها فى المغرب الاقصى بالمعنى الذى اشرت اليه .

اللفّة العربيّة في مرآة قواعدها القوميّة

الأستاذ أنطون شال⁽¹⁾
جامعة هايدلبرج
ترجمته الأستاذ إدريس الخطّاطي

الفينا فقرته الحادية عشرة تقول من بين اشياء اخرى: « ينقسم الكلام الى ثمانية اقسام: اسم وفعل واسم مفعول واداة تعريف او تنكير وضمير وحرف جر وحال وعطف ». اما النحويون الرومان فاننا نجدهم يتخذون المصطلحات اليونانية مترجمة بالحرف الواحد. ولذلك ظل نموذج ديونيزيوس تراكس عالقاً بالاذهان لدرجة ان الاقسام الثمانية ظلت قائمة على الدوام مع تغيير بسيط وهو احوال حرف التعجب محل اداة التعريف التي لم توجد في اللاتينية. وقد تولى النحاة الثقات، مثل دونات (Donat) وبريشيان (Priscian) نشر هذا المذهب طوال القرون الوسطى والزموا به الناس. اما التقسيم الثلاثي الذي اوردنا في مطلع بحثنا فلا يوجد له اثر واحد في هذا الوقت على ما اظن.

وقد أسس يوهانس رويشليين (Johannes Reuchlin) سنة (1506) في بفورتهام (Pforzheim) قواعد اللغة العبرية عند المسيحيين في كتابه « مبادئ العبرية ». وفي الصفحة (551) يكتب عند تعرضه لأقسام الكلام

اذا فتحنا كتابا من الكتب الحديثة التي تعالج قواعد اللغة اللاتينية نستعلم عن انواع الكلمات المكونة للجملة وجدنا التقسيم كما يلي: الاسم والفعل والجزئ (أو الاداة) (Partikel). والعلامات التي يستند اليها هذا التقسيم ذات طبيعة عريضة اي انها ليست من صميم الكلمة: فالاسماء المعربة والأفعال المنصرفة كلمات قابلة للتغير. واما باقي الكلمات غير المتغيرة فيشملها اللفظ العام: جزئ. غير أن علامات التمييز هذه لا تفي بالغرض اذا اردنا أن نقسم الجزئ الى اقسامه المختلفة. ومن ثمة ادخلت فكرة وظيفة الكلمة في الجملة وتفرع الجزئ الى حال وجرار وعطف ونداء. فنحن نرى اذن، أن قائمة انواع الكلمات أو اقسام الكلام، قد اشتملت على الفاظ ذات طبيعة متباينة تباين وجهات النظر النحوية عبر التاريخ.

واذا رجعنا الى ما قبل اليوم بحوالي قرنين اي الى زمن وضع القواعد النحوية الاولى في البلاد الغربية، والقينا نظرة على « فن القواعد اليونانية » لمؤلفه ديونيزيوس تراكس (Dionysios Thrax)

(1) جاءنا هذا البحث من مؤلفه من المانيا الاتحادية ورغم بعض الآراء الغربية التي جاءت فيه فاننا ننشره حتى تكون على علم بكل ما يكتب عنا مهما كانت نوعيته او قيمته وقد نشرنا الاصل في مكان آخر من هذا العدد. وهو عبارة عن كلمة القيت بمناسبة تولي المؤلف الاستاذية فوق العادة للغات السامية الحديثة والاسلاميات في جامعة هايدلبرج في 21 ديسمبر 1971.

العبري : هنالك ثلاثة أقسام : الاسم والفعل والآتي بمعنى - نقول اليوم الجزىء - ، ويشتمل الاسم أيضا على الضمير واسم المفعول . ويشتمل الحرف على الأربعة الآتية : الحال والعطف وحرف الجر والتعجب . نرى أن تقسيم كتابنا الحديث للقواعد اللاتينية يتفق مع كتاب رويشليين اتفاقا مدهشا . والجدير بالذكر أن رويشليين والعلماء المسيحيين المعارضين له أخذوا فكرتهم حول أقسام الكلام عن الأعمال النحوية اليهودية القومية حول اللغة العبرية ، غير أن أعمال علماء اليهود النسقية الأولى كتبت باللغة العربية وألفت تحت تأثير وحسب نموذج القواعد النحوية العربية القومية .

قادتنا هذه الفارة الصغيرة في تاريخ النحو الى علم هيم في عهد لعمان الثقافة العربية الاسلامية . وتأثير هذه الثقافة وبقائها في علوم الغرب الطبيعية والرياضيات وعلم النجوم ودورها الواسطي بالنسبة للتراث اليوناني معروف معرفة عامة . غير أن الأثر المتواضع لهذا العلم العربي الاصيل في وسط كتاب من كتب النحو الحديثة لم ينظر اليه بعد ، من هذه الزاوية .

ولم نجد في نطاق عملي ، شعبا من الشعوب القديمة ، عني بلغته وفكر فيها وحاول تنسيق تأملاته حولها الا الشعبين اليوناني والهندي . أما الدور الذي قام به النحو القومي اليوناني فقد سبق أن أشرنا اليه وأما الهنود فقد تجاوزوا دقة اليونان في هذا المضمار وأظهروا أصالة في أبحاثهم ووصلوا الى القمة بمؤلفات بانينسي (Panini) أواسط القرن الاول قبل المسيح . وقد مهدوا بالفعل الطريق امام الباحثين الهندوجيرمانيين في الدراسات المقارنة بين اللغات . ولم تتم الانجازات العظيمة الرائعة في هذا العلم الا بعد دراسة السانسكريتية والبحوث الدقيقة التي قام بها النحويون الهنود الذين القوا الضوء على هذه اللغة وأوضحوا غوامضها الدقيقة .

ويقع النحو القومي العربي ، في المكان والزمان ، موقع الوسط بين النحويين الهندي واليوناني وهذا الموقع هو الذي جعل الناس يتساءلون الى الآن ، عما اذا كان النحويون العرب قد استعانوا بنماذج اجنبية ونظروا لهذا الوضع ولعدم تمكن العلماء من اعادة المراجع الى أصولها بالدقة المطلوبة أصبح من المستحيل الفصل في هذا الامر ، اذ ليس من المتوقع أن نجد

قبل الخليل ، الذي يعتبر المؤسس للنحو العربي ، مصادر أقدم منه للرد على هذا السؤال . وفي القرن الثاني الهجري اي في نهاية القرن الثامن الميلادي ، طلع على الناس ببيان عجيب ، هو بمثابة صرح لقواعد اللغة العربية . والذي شاد هذا البناء الشامخ هو تلميذ الخليل الفارسي سيبويه . وأهم أعماله النحوية هو مؤلفه المسمى « الكتاب » . وفيه أول عرض شامل منسق للغة العربية وهو بالنسبة للنحويين العرب « الكتاب » الذي لا يزال ثقة الى يومنا هذا .

أما نقطة الانطلاق بالنسبة لأكثر العلوم العربية نقاوة فتدور حولها مجموعة من الأساطير . فقد كان أبو الأسود الدؤلي - أحد أنصار علي بن أبي طالب آخر الخلفاء - قاضيا في البصرة وهي المدينة الكبيرة التي كانت في أول أمرها معسكرا للجند العرب ، والموجودة اليوم في جنوب العراق . وقد سئل أبو الأسود الدؤلي : كيف تعلم العلوم النحوية فأجاب بأن الخليفة نفسه هو الذي علمه أباه ولم يكن أبو الأسود يعبر معلوماته اهتماما كبيرا حتى أمره حاكم العراق بوضع دليل للغة العربية ليتمكن الجمهور من تفهم القرآن كتاب المسلمين المقدس . ولم يبد أبو الأسود رغبة في الانصياع لهذا الأمر بيد أنه سمع يوما أحد الناس يتلو جزءا من السورة التاسعة من القرآن (سورة التوبة : المترجم) كما يلي : « أن الله برىء من المشركين ورسوله (1) » بدلا من ورسوله كما هي القراءة الصحيحة . والقراءة الخطأ ليست أقل من الكفر لأن معناها أن الله برىء من المشركين ومن رسوله . فذهل أبو الأسود من هذه القراءة وقرر على الفور تلبية أمر الحاكم .

ليس من الصعب معرفة النواة التاريخية لهذه الاسطورة ، فالمسألة تدور حول المحافظة على تراث مقدس أي حول وقاية ما يعتقده العرب انه كلام منزل من عند الله بلغة عربية خالصة نقية . فكانت اذن الأسباب التي أثارت عند العرب الانتباه الى القواعد النحوية هي أسبابا دينية . كان من الواجب أن يسان القرآن عن الأخطاء في أفواه العديد من الذين كان عهدهم بالاسلام حديثا . والاتصال باللغات الأجنبية في البلاد المغزوة هو الذي نبه العرب الى الاعتناء بلغتهم وليس هذا السبب أقل الدوافع لوضع النحو القومي ، مع العلم بأن الاتصال باللغات الأجنبية في البلاد الغربية

(1) بالعربي في الاصل .

التعريف نفس تعريفنا نحن الغربيين ، مع العلم ان العلوم الاسلامية ومعها النحو العربي القومي قد اتجهت وجهة متباينة تمام التباين عن وجهة العلوم الغربية . فنحن نحاول توسيع المادة الماثورة وتنميتها حسب الامكان ، ففي مادة التاريخ - مثلا - نجتهد دائما في ضم مصادر أخرى حتى نستطيع تحديد اسباب مصرنا بطريقة ادق . وفي العلوم اللغوية نسعى الى مضاعفة تعميق نظرتنا حول تطور اللغة وذلك بواسطة طبع امهات الكتب والبحث في اللغة الدارجة . نعم نقيم - نحن ايضا - نظريتنا على اساس المواد الموجودة بين ايدينا ، واذا تغيرت هذه المواد او وجدت مواد جديدة يمكن ان تتغير النظريات تحت ظروف معينة تغيرا حاسما . غير ان العلوم الاسلامية نمط آخر : فالمادة المتواترة قد اكتملت ووصلت الى حدودها في زمان معين في الماضي . فبعد ان اقام اللغويون العرب نظريتهم النحوية على اساس الادب العربي المعترف به آنذاك أصبحت هذه المادة المحدودة ، المقياس الوحيد لبناء النسق النحوي .

ولاجل هذا النموذج الذي وضعه النحويون الاوائل لم يؤخذ بعين الاعتبار مع القرآن الكريم الا الشعراء الاقدمون والنصوص النثرية القديمة القليلة من بينها الروايات الخاصة بأيام المعارك التي خاضها العرب الجاهليون والامثال القديمة واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، اما الادب النثري الجيد الذي ازدهر بغزارة بعيد عهد الأمويين والذي هو جزء مهم من الادب العربي النحوي فلم يستعمل به لبناء قواعد اللغة . والسبب في اهماله وفي عدم محاولة تلاميذ سيبويه استخراج الامثلة النحوية من النثر يرجع الى قدرة الاسلام على التشبث بالمعطيات الاولى . واذا طبقنا ذلك على اليونان فانه يعني حصر استخراج النماذج النحوية على مؤلفات هوميروس والشعراء الاقدمين واهمال هيرودوت (Herodot) وتوكيديدس (Thukydides) وبما ان لغة القرآن كانت هي اللغة القانونية والمحترمة الوحيدة وبما ان اللغة العامة كانت تختلف عنها في التشكيل وتركيب الجمل كان من الطبيعي ان يرفض العرب رفضا باتا استعمال ظواهر اللغة العامة في بناء النسق النحوي .

ولقد ادت الاعتبارات الدينية هنا الى تقلص المادة المتواترة وظهرت فعلا وفي زمن مبكر معارضة لهذه الفكرة وذلك في القرن الثاني الهجري وكانت المعارضة تتوخى توسيع الماثور اي الزيادة في المادة المستعملة لبناء النسق النحوي . لكن سرعان ما انتصر

في نفس الزمن - اي في القرون الوسطى - لم يؤد الى الاشتغال باللغة القومية : فاللغة العربية عرفت درجات مختلفة من النمو وكانت هذه اللغات المختلفة المستويات تتنازع الصدارة قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم - المترجم) . فمن ناحية توجد لغة دارجة منقسمة الى لهجات متباينة ، ومن ناحية أخرى اللغة العربية العتيقة الآتية من القدم ، لغة راقية او لغة الادب . ولا نستطيع اليوم تحديد الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما هذه اللغة الراقية ولا متى اعترف لها بالصدارة ولا متى اعتبر استعمالها ملزما بشروط معينة ، والشيء الذي لا يتطرق اليه الشك هو ان هذه اللغة كانت في زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) متميزة عن اللهجات الأخرى وأصبحت لغة نعم جميع القبائل فيما يخص الشعر والاحتفالات ذات الأبهة والاحترام . وقد احتفظ الشعر العربي القديم - بأوزانه الصارمة البنية - لهذه اللغة بتقواتها . وأهمية الشعر - كبديل للفن التشكيلي - الذي كان مستحيلا في الحياة البدوية - جعلت من الممكن ابقاء هذه اللغة حية على الدوام .

والتناقض بين لغة العامة ، ولغة الشعراء والقرآن كان لا بد ان يعمق التفكير في اللغة القومية . ومن المؤكد ان الذين اتخذوا تلاوة القرآن مهنة كانوا في نفس الوقت نخاة . فلم يكن تأويل القرآن الذي كان ينظم الحياة العامة والخاصة ممكنا الا بمعرفة دقيقة للغة الراقية . وفي المدينتين الطموحتين الكوفة والبصرة - بأدنى العراق - نشأت مراكز للعلوم النحوية ، ربما اقتصر هذا العلم بادئ ذي بدء على مراقبة كلام البدو وجمع وشرح الاشعار والروايات الخاصة بالحروب القديمة والامثال والتقاليد ، فنعرف - مثلا - ان معظم اعمال الكوفيين مجرد تجميع . اما البصريون فيظهر انهم بكروا بترتيب المواد المتواترة والممثلان الرئيسيان لمدرسة البصرة الخليل وسيبويه ، هما اللذان اتما تنسيق النحو العربي .

نعرض على القارئ فيما يلي تأملا قصيرا عن النظرة الاسلامية للعلوم :

عرف السيوطي العالم العربي المشارك كل العلوم بانها جزء من المنقول الماثور الذي عولج بعقل وتدبر . ويشتمل هذا التعريف على ركني كل عمل علمي : احد هذين الركنين هو المنقول اي المادة الماثورة القابلة للمعالجة والتنقيح ، والركن الثاني هو عقل العالم المنقح مع موهبته البنائية والتركيبية . ويمكن أن يكون هذا

مذهب المتواتر المعهود على مذهب التوسيع والتجديد وحتى في النحو الذي ما كنا نتوقع فيه وجود علاقة بالدين يتمكّن النزاع المتواصل الذي نلاحظه في التطورات المذهبية والشرعية في الاسلام . وفي هذا النزاع انتصر انتصار القديم المتصلبين . ولهذا السبب رفض ممثلو النحو القومي العظام ، الانشغال باللغة العامة او تصحيح أخطائها . ولم يألوا جهدا في الحفاظ - بغيره - على القانون الذي هو نموذج الاعمال الادبية العظيمة وعدم توسيعه، ولهذا استعملوا دائما في مؤلفاتهم نفس الادلة والامثال . وبذلك اتخذ النحو صبغة « علم معيار » وأخيرا أصبح هذا المعيار والمعبارة « ممنوع » سببا في ان اللغة العربية الفصحى ظلت هي هي ، في أساسها ، منذ ثلاثة عشر قرنا .

واذا عرفنا ان النحو العربي لم يتزود بأية مادة حية من أية لغة حية ، سهل علينا أن ندرك كيف عدا هذا العلم بالضرورة ، شيئا فشيئا ، جامدا مثل العموية . ويمكننا ان نأخذ فكرة عن ذلك في رواية من روايات الشاعر الفارسي الشهير سعدي في ديوانه « جنة الورد » في القرن الثالث عشر . ففي إحدى رحلاته الى تركستان الشرقية - التي هي ولا شك ، ثمرة خياله الشعري - رأى سعدي في مسجد كشتكار طالبا منصبا بحماس على باب من ابواب كتاب الزمخشري . ويجب هنا ان استطراد لاقول ان النحو العربي يشرح حالات الاعراب في جمل نموذجية صغيرة وتدرس نهايات الاعراب مرتبطة بنصوص مفترضة لا يحاد عنها قط ، ولذا سمع سعدي الطالب يقرأ : ضرب زيد عمرو وعمرو هذا مفعول وزيد فاعل . وحدث أنه في السنة نفسها عقد حاكم توران سلما مع القيصر الصيني بعد حرب طويلة . وقال سعدي للطلاب الشاب في سخرية خفية :

لقد تصالح توران والصين ، وما زال زيد يضرب عمرو . والى يومنا هذا يتضارب عمرو وزيد في جميع المدارس التي يلقي فيها النحو العربي على الطريقة القديمة .

هذا ولم يعتبر المسلمون قط اللغة شيئا متطورا وناميا كما لم يتفهموا الفرق بين اللغة والكتابة التي هي شيء عارض مخترع والسبب في ذلك هو القرآن أيضا فمعنى كل كلمة في نصه المأثور لا يوجد في صورته الملفوظة فقط ولكن يوجد أيضا - بل أكثر منه - في رسمه المكتوب الذي تناقله الاجيال في شكل معين . فللرسم والكلام نفس الوزن . وقد بنيت القواعد النحوية على أساس نص القرآن أي حسب صورة الرسم كما ترى بالعين لا حسب صورة اللفظ كما تسمع بالأذن . فأصغر جزء في الكتابة هو الحرف اما في العربية فهو الحرف المتحرك فقط (1) ولذلك يسوي في الاصطلاح النحوي اللفظ والحرف المتحرك والمدلول الذي تدل عليه الكلمة (Silbe) ، والذي هو أصغر جزء في الكلام الملفوظ المسموع ، لم يكن معروفا عند النحويين المسلمين في القرون الوسطى ولم تعرف اللغة اصطلاحا عليه ، وبما أنه لم يعمل الا حسب صورة الرسم فكان المدلول الذي تدل عليه الكلمة (Vocal) ينقص في اللغة . ولم تدخل علامة الحركة في اللغة الا عند ما أدخلت العلامات الدالة على فسر الحركة . ولم يحدث ذلك الا لان العرب يرمزون الى الحركة بعلامة خاصة . والشئ الذي يثير الاستغراب هو أن نظرية صوتية تشبه نظريتنا قد بنيت على هذا الأساس . بل تطورت منها الأوزان الشعرية وذلك بدون أن يكون المفهوم من الكلمة (Silbe) معروفا .

وبالإضافة الى معنى ضيق للمادة لا نفهم نحن الغربيين ، فالمعرجي الخارجي الذي اتخذته النظرة الى اللغة القومية في العالمين الغربي والاسلامي متباين تمام التباين . فالليونان ، وهم أساتذتنا في العلوم النحوية ، كانوا ، قبل اكتشاف العلوم المختلفة ، قد عنوا كثيرا بالعام الذي يكمن وراء الخاص واهتموا بمبادئ الفلسفة ، وبنوا بالفعل صروح المنطق ، وفي اطار هذا الاخير وجدت المادة التي تستند اليها العلوم المختلفة وخصيصا اللسانيات أرضا صلبة . فالكلام

- (1) تنقسم الحروف الأبجدية عند الغربيين الى (Konsonant) بالفرنسية (Consonne) وهي ذات المخارج و (Vocal) بالفرنسية (Voyelle) وهي ما يسميه العرب الحركات كالفتحة والكسرة والضمة والسكون - الفرق بين العرب والغربيين هو أن الحركات عند الغربيين (a, e, i, o, u, y) تعد من الحروف وتكتب الى جانبها - ولا تعد في العربية من الحروف ولا تكتب بالضرورة معها وانما توضع فوقها أو تحتها اذا أشكل النطق - (المترجم)
- (2) يعبر عن هذه الكلمة اليوم بـ مقطع (المترجم)

والفكر عند اليونان يشتملان على نفس القوانين المنطقية . ولذلك كان من الممكن ادراك الاثنين في نفس المنهج الفكري . فيتساوى عندهم الحكم والجملة ، والمدلول والكلمة . اما في الاسلام فقد تطورت الامور تطورا مضادا على طول الخط ، حيث جمع المسلمون ، أولا ، المادة اللغوية التي هي موضوع البحث والتنظيم ، ثم كونوا منها بعد ذلك نظرية لغوية ولا نقول ان هذه النظرية الاساسية غير منطقية ولكنها ليست ، كما عند اليونان ، منطقية صرف ، فالنحويون القوميون العرب ينظرون مع وعبر اشكليات والقالب الى محتويات ومعاني الجمل . واليونان ومعهم الفرييون اليوم يرون العام وراء الخاص . اما النحوي الاسلامي فلم يستطع ان يخرج من الخاص الى العام الا بشق الانفس . وتصلح نظرية اليونان اللغوية ان تطبق على جميع اللغات لأنها تطورت تطورا موضوعيا . اما النظرة العربية الاسلامية الى اللغة فلا يمكن تطبيقها اساسا الا على اللغة العربية نفسها لأنها لم تنبع من مبادئ منطقية موضوعية صرف . ولذلك يمكن ان يفهم السبب الذي جعل اللغتين الادبيتين الكبيرتين الفارسية الحديثة والتركية العثمانية المعتمدتين على العربية ، لا تستطيعان تطوير نظرية لغوية خاصة بهما . فالفارسية الحديثة الهندوجيرمانية ابست ان تخضع لنسق لا يصلح الا للغة العربية .

وتختلف التقسيمات في النحو الاسلامي ، حتى في مظهرها ، عن التقسيمات في نحونا اختلافا كبيرا . فعلى اساس التوازن المنطقي بين الكلمة والمعنى وبين الجملة والحكم ، تنقسم قواعدنا النحوية الى دراسة تكوين الكلمات اي علم الاشكال ، ودراسة تكوين الجمل اي (Syntax) . اما النحويون العرب فينهجون نهجا آخر ، فهم يميزون بين المفردات من الناحية النحوية الصرف فقط ، حسب نهاياتها وحسب عملها الذي تعمله في الجملة . ثم يكفي تقسيم المفردات تقسيما خارجيا لا يستند الى بنيتها ، وخلال هذا التقسيم الى مفردات مختلفة الانواع يمكن استخراج نظرية حول تكوين الجمل ، لان الكلمات تتغير في نهاياتها حسب موقعها من الجملة .

وتقسم الكلمات هذا الى انواع ، هو الذي ادى بي الى نقطة الانطلاق في هذا البحث . فيقسم العرب جميع مواد كلامهم الى ثلاثة اقسام : الاسم ، (1)

والفعل (2) ، والحرف (3) الذي نعبر عنه نحن بالجزء . وهذا هو التقسيم الذي اخذه ريشلين من القواعد القومية اليهودية المقتبسة هي بدورها من القواعد العربية القومية . وقد ظن الناس في الاول ان العرب مدينون ، في معاني قواعدهم الاساسية هذه لتأثير اجنبي وبالاخص تأثير يوناني . مع العلم اننا ، نحن الغربيين ، لم نعرف الا بعض المؤلفات النحوية التي تحمل آثار التعريفات الارسطوطالية . وقد ظهرت هذه المؤلفات في وقت متأخر نسبيا وجاءت مرتبطة بأصلها ارتباطا جديرا بالملاحظة ولم تنفصل عنها الا نادرا . بذلك كان من الممكن ان ينشأ اخيرا الاعتقاد القائل ان القواعد القومية العربية ارتكزت على الفلسفة اليونانية ، العكس تماما لما تواتر عند العرب الذين يعتبرون القواعد القومية علما عربيا محضا . وبهذا الاعتقاد فقد الفرييون ملكة تقدير المصادر القديمة بموضوعية ونسوا ان هذه المراجع الاصلية اقدم من التاريخ الذي دخلت فيه الحكمة اليونانية العالمية في دائرة الفكر العربي . وقد أتى بعضهم بدلائل ضعيفة جدا ليحاول ان يجد في انشاء المعاني عند النحوي العربي تأثيرا من القواعد اللاتينية وذلك عند ما قارنوا بين الاصطلاح اللاتيني (Terminus) والعربي « حرف » مع ان « حرف » يدل على شيء من الملفوظ او المكتوب صغير ليس محدودا في حجمه ، ابتداء من حرف او حرف متحرك حتى الكلمة وعبارة ، وجزء من جملة . ولا ينبغي فهم هذه الكلمة التي نعبر نحن عنها بكلمة (Partikel) اي قسم الكلام الثالث ، كما يفهم اليوم . فالمفهوم العربي لهذه الكلمة ليس كذلك . يقول سيبويه ان الكلام ينقسم الى ثلاثة اقسام : الاسم والفعل والحرف (4) ثم يعرف الحرف ويوضحه كما يلي : يعبر الحرف عن معنى ليس بالاسم ولا بالفعل . ولذلك فكل « حرف » تعني شيئا آخر ، غير الحرف المفرد او مجموعة من الحروف التي تكون كلمة لا معنى لها بذاتها . كل ما ليس اسما او فعلا ينتمي الى الحرف ويأتي بمعنى . ولا تمت هذه الكلمة الى الكلمة اليونانية (Syndesmos) بصلة . وفي العبارة « حرف معنى (1) » كما كان يسمى القسم الثالث في الاصل يقع الوزن في الكلمة الثانية « معنى » ويمكن التعبير عنه في لغتنا بـ « مجموعة من الحروف الابدئية الدالة على معنى » .

(1) بالعربية في الاصل وترجمها المؤلف الى الالمانية

والمنطق الالهي وواجب النحويين هو ازالة الحجاب عن المنطق الذي يكمن وراء الكلمات واكتشاف اسرار اللغة (اسرار العربية) (1)

ويسمى العالم النحوي العربي ، من وراء الظواهر اللغوية الى استخراج قواعد تمكن من تفسير تطور لغوي . اما بالنسبة للعالم للغوي العربي فاللغة مبنية نفسها بناء منطقيا وينبغي له ان يستدل على منطق هذه القواعد ويبرهن على ان كل كلمة اينما تقع في هذا المكان على أساس من المنطق السليم ، وانطلاقا من ظواهر استثنائية معينة يقيم النحويون العرب المتأخرون - باستدلال صارم - قاعدة لغوية مطلقة وقد لعبت هذه القاعدة دورا صغيرا في مرحلة النحو العربي المتقدمة لأنها غير عقلانية ولم تلائم حياة اللغة ، بيد ان هذا الدور نما فيما بعد نموا غير طبيعي واصبح النحو علما محتاجا الى استدلال ومعيار بدلا من ان يكون علما مفسرا وشارحا .

وهذا مثال لمنهجهم : تقتضي كلمة الاستفهام العربية « كم » المنصوب بعدها . لماذا ؟ يفكر العالم النحوي العربي كما يلي : تحل « كم » محل عدد . ولا يعرف السائل هل « كم » حالة محل عدد صغير او كبير . واعراب ما بعد العدد يختلف اختلاف وقوع العدد في احدى المجموعات الثلاث : (3 - 10) او (11 - 99) او (100 فما فوق) وبما ان الجواب غير معروف بالتاكيد فان الاختيار المنطقي الوحيد هو مجموعة الوسط (11 - 99) . وهذه المجموعة تقتضي المنصوب وكذلك - اذن - « كم » .

هذا مثال نموذجي لحوار النحويين العرب . فالقواعد العربية شاملة صارمة . ولا تقبل الاستثناءات . واذا حدث انحراف عنها يستعان بالتشبيه للدلالة على ان هذا الانحراف منتظم في القاعدة . ويؤتي لأجل ذلك بوجه او أوجه للشبه . واذا كان عاملان متشابهين يختار للثاني نفس العمل الذي للاول . ولا يهم ان يكون هذان العاملان قابلين او غير قابلين للمقارنة . وبما ان كل المفردات تتكون من الحروف المتحركة وبما ان هذه الاخيرة اجزاء اقسام الكلام المختلفة يمكن ايجاد علاقة بين الاسم والفعل الماضي ، مثلا ، وكلما زادت اوجه الشبه الخارجية والداخلية أمكن التسوية بين اعمال العوامل المشبهة ، وبما ان هنالك خمسة اوجه للشبه بين الاسم والفعل الماضي فذلك يكفي مثلا

يستعمل النحويون اليهود مرارا وبكل بساطة ترجمة عبرية لهذه الكلمة « معنى » للتعبير عن القسم الثالث للكلام . ولا يمكن التحدث عن استعمارة من اليونان . والمطابقة بين الاصطلاح العربي « اسم » والاصطلاح اليوناني (Onoma) (تسمية شخص او شيء) على قسم الكلام الاول ليس الا صدف محضة . ولا علاقة ايضا بين الاصطلاح اليوناني (Rhéma) (هذا الذي يحكى على شخص) والاصطلاح الدال على قسم الكلام الثاني « فعل » في العربية .

فالفاعل عند النحويين العرب ليس هو الفاعل عندنا . كان هذا الاصطلاح في الاصل اصطلاح علم المنطق ونقله اليونان الى النحو ويعبر عندهم عن الكلمة التي يقال عنها شيء . لا يعرف النحو العربي هذا المفهوم الاصلي لكلمة « الفاعل » . فليست الجملة عند النحويين العرب حكما بل سلسلة من الكلمات الدالة على معنى . ولذلك ، فثمة انواع مختلفة من الافعال حسب هذا الشيء الذي يقال عنه . فاذا بدى بالفعل سمي الفاعل ، الذي في محل رفع ، « فاعلا » . ولكن اذا بدى بالاسم سمي الفاعل « الكلمة التي بدى بها » واذا بنيت الجملة للمجهول اصبح الفاعل غير فاعل ولكن مفعولا وسمي المفعول الذي لم يسم فاعله .

وقد ظهرت هذه المعاني النحوية الاساسية عند اقدم النسقين العرب . كانت المادة المخصصة للعمل محدودة للغاية ولذلك كان ينبغي ان يهتموا وخلفاؤهم معهم بالركن العلمي الثاني ، أي العقل ، المدير والمرب ، أكثر من اهتمامهم بالركن الاول ، فبهذه الطريقة قد يكون ما يضيفه العالم الى المادة أكثر من المادة نفسها التي يستخدمها .

وبالاضافة الى ما سبق ، فان العرب لم يهتموا الى مقارنة العربية بلغات سامية اخرى لانهم كانوا يكادون يجهلونها . اما تطبيق المنطق على اللغة فلم يكن ممكنا لانعدام النسق عندهم . ولهذا السبب تمت جميع اعمالهم على أساس مبدا واحد : القرآن كلام الله وهو العقل والمنطق . ولغة القرآن اذن مثال اللغة العربية ونموذج تعبيراتها ، ولا بد ان يظهر في كل جزء من بنائه المنطق الالهي . واذا كان اليونان قد سوا بين اللغة والفكر وبين قوانين اللغة وقوانين الفكر ، فالنحويون العرب قد سوا بين اللغة العربية

(1) بالعربية في الاصل .

لأثبت أن هذا الأخير له الحق ، بالضبط كالاسم ، أن
يغير ، قبل سواء حركاته .

يؤتي بالبراهين من كل ميدان ومجال . فمعروف
في الطبيعة مثلا أن السبب يسبق المسبب . ولذلك
فلا تسمح اللغة أن تأتي الجملة الشرطية في المقام
الثاني بعد جوابها في مركب شرطي . فهذه الجملة
تدل على علة ولذلك يجب أن تسبق . أما الإيقاع الجميل
والعرف الرفيع فيفسران لنا كيف يجب أن يتبع
المجروح عامل الجر فيه ، على العبد أن ينتظر حتى
يأخذ السيد مكانه . وكذلك يجب على الكلمة المعمول
فيها أن تقع وراء الكلمة العاملة . فيأتي مثلا المضاف
قبل المضاف إليه ويقع حرف الجر قبل المجروح به .

فاللغة العربية صورة العقل والمنطق
ونتيجة الفكر ، والعدالة والانسجام الإلهيين .
والاستثناءات من القاعدة توجد في هذا النحو بالندرة
التي توجد بها الاستثناءات من العقل في الحياة . بل
لقد برر بعض التحويين المتأخرين الاستثناءات من
القاعدة بواسطة المنطق . وفي الحالات التي لم
يكف فيها المنطق الفيت الاستثناءات بكل بساطة من
المادة الأصلية ويقف عقل النحاة فوق المادة ويسهر
على عقلانية اللغة ويتساوى في العمل المعياري مع

(1) بالعربية في الأصل .

القاضي الذي انيطت به إقامة العدالة الإلهية والمحافظة
عليها .

تفصلنا عوالم عن هذا المنهج وهذه النظرة
العلميين بل من الصعب علينا بمكان أن نساير هذا النوع
من طرق التفكير ولا يمكن تفسير هذا المنهج - كما
قلت آنفا بإيجاز - خصبيا بالنسبة إلى النحو القومي
العربي ، بالتأثيرات الأجنبية . فالعلم اليوناني والعلم
العربي مؤسسان على مبادئ متباينة تماما . ولكن
ليس من الانصاف الاستهزاء بهذا العمل العلمي . فانه
يصدر عن سبب سام الا وهو واجب الانسان الاساسي
في القرون الوسطى الاسلامية اعني العبادة (1) أي
خدمة دين الله . ومن ثمة يأتي واجب الفرد أن يحيا
حياة مستقيمة ، ومهمة العلم هي تنسيق وتأويل ما أتى
به الوحي والحديث لإقامة هذه الحياة المستقيمة .
ومهمة النحو كعلم من علوم اللغة ، في نشر القرآن
والحفاظ عليه مهمة ممتازة للغاية ، ومن ثمة يمكن
تفسير جموده فيما بعد ولكن من ثمة أيضا جاء الدافع
القوي إلى العمل .

والمرأة التي بحثنا فيها عن صورة اللغة العربية
أكثر من مرآة بمعناها المألوف ، فهي بؤرة إشعاع
ومصدر الضوء فيها هو الدين الذي ذابت اللغة العربية
في أشعته لخدمة الإلاه .

الورق المهرق stencil

ذكر ابن الأبار (الحلة السبراء ص 137) « أنه كان لعبد الرحمن
كاتب اعتاد أن ينشيء الرسائل الرسمية في منزله ثم ينقلها إلى
ديوان خاص يصير فيه أظهارها على الورق وهو من نوع الطباعة
فتصدر في نسخ متعددة توزع على عمال الدولة » .

اللغة العربية تماشي الأمة العربية إلى الأمام لأنها جزء حي منها

الأستاذ إلياس قنصل (عاصمة الأرجنتين)

الى تاريخها ، يريد ان يشوه معالمه الواضحة العالية ليزيل الاتصال بين الماضي والحاضر .
الى نشئها ، يعني ان ييث فيه من الانفلات ما يذيب شخصيته المأولة .
الى اقتصادها ، يرمي الى وقفه عند حد محدود ، فلا يتفاعل مع امكانيات النشاط .
الى كل شيء .

وقد كان « اللغة العربية » نصيب وافر من تلك الحراب المصوبة التي تقطر بالسلم الزعاف .

طلعت الدعوات العديدة تشير الى وجوب البحث في « تطوير » اللغة ، ولم يكن القصد لا التطوير ولا ما يشبه ذلك من بعيد أو قريب .

كان القصد ايجاد البلبلة في اجزاء الامة التي تتكلم هذه اللغة ، واحداث شكل من اشكال الفوضى قد يمتد الى عوامل لها علاقة وثيقة باللغة .

كان القصد منها - الى ذلك - شغل فئة من حملة الاقلام بالاخذ والرد والمباحكات والمناقشات البيزنطية ، وصرفهم عن اذكاء نيران الحماسة في النفوس لمحاربة الاستعمار .

لا نقول ان جميع الدعوات التي تعالت مطالبة بالاصلاح ، كانت من ايعاء الاستعمار ، فقد تنزه بعضها ، عن ذلك ، ولكننا نقول ان معظمها كان مدفوعا من الاخطبوط المذكور .

والذي يراجع تاريخ هذه الدعوات يجد ظاهرة من غريب الظواهر لا يمكن ان تكون من عمل الصدف :

كل سلاح وصل الى يد الاستعمار ، استعمله ، محاولا القضاء على القومية العربية .

انزل الاستعمار على المدن العربية قنابله ، ووجه الى صدور ابنائها رصاصه ، وهدم ، وخرّب ، وشرّد ، واعتقل ، ما شاءت له مطامعه .

ثم حاول - وقد رأى ان بطشه المكشوف لم يجد - زعزعة اركان الوعي القومي العربي من الداخل ، فرشد الانصار ، وجند الاعوان ، واشترى الضمائر ، ولكنه على الرغم من ذلك ، لم يستطع الوصول الى ما يعني ، فقد كان هؤلاء الانصار والاعوان من القلة ، وكانت اليقظة الشعبية من الشمول ، بحيث اخفقت محاولاته ، ورأي نفسه كما رآه العالم ، متعثرا بأذيال الفشل ، لا يكاد يللم ذاته من حفره حتى يقع في حفرة ثانية .

واذا كان الخذلان قد اصابه في محاولاته ، فليس المعنى ان المعركة التي استهدفت لها الامة او بعبارة اصح ان المعارك التي ساقها اليها ، كانت معارك هيبة لينة ، كلا ، لقد كانت جولات عنيفة ، تركت في جوانب الامة جراحا ضمدت بعضها ، ولا يزال بعضها ينزف بالدم ، الى الآن .

صوب الاستعمار حراجه الى سائر مقومات الامة العربية :

الى اخلاقها ، يريد ان ينفذ بالفجور الى مناعتها ، فينهار تماسكها .

كانت هذه الدعوات تطل برؤوسها عندما يشتد ضغط الشعب مطالباً بالحقوق المفصولة .

ان هذه الدعوات لم تكن تظهر ابداً في فترات السكون السياسي ، والاستكانة القومية وهي الفترات التي كانت حرية بأن تظهر أثناءها ، لان هذا الاصلاح - اذا صح ان مرماه الاصلاح - يحتاج الى درس ، لا يتم الا تحت ظلال الاطمئنان .

قال هؤلاء فيما قالوا :

ان اللغة العربية فوق مستوى الجمهور ، وانها وقف على طبقة معينة من الامة ، وان هذا عيب من عيوبها ، تلافية ان تكتب بلغة الشعب بالعامية . . .

ولو تم لهم ما ارادوا ، لقضي القضاء المبرم على واسطة التفاهم بين الاقطار التي تضمها الفكرة العربية لقد رأى هؤلاء ان اللغة العربية - في حالتها الحاضرة - تجمع السوري الى المراكشي ، كما تجمع المصري الى الويتي ، كما تجمع العراقي الى اللبناني حتى لا يكون بين المجتمعين اي فارق ، مهما كان ، فكان المقيم في أقصى القارة الاسيوية كالمقيم في ادنى القارة الافريقية .

راي هؤلاء المطالبون باصلاح اللغة ذلك ، فهاهم الامر الذي يكاد يكون منقطع النظير في ادوات التفاهم ، فعمدوا الى تفكيك هذه الوحدة ، وبرزوا بالنفمة « النشاز » : تحويل اللغة الفصحى الى العامية ، اي وضع حدود او شيء كالحدود بين اللهجات المختلفة بحيث يصعب التفاهم بين قطر وقطر ، واذا لم يصعب ، فلا اقل من ان يكون ثقيل .

ولو كانت نية هؤلاء ما قالوه ، لدعوا الى رفع العامية من مستواها الى المستوى الذي تتقرب فيه من الفصحى كما يفعل الزمن دون ان يشعروا ، فالاصلاح الحقيقي هو ان تتجه الى الكمال ، لا ان تتحدر الى الناقص ، ومن البديهي الذي لا يكابر فيه ان الفصحى هي رمز الكمال ، لا العامية .

وقال هؤلاء فيما قالوا :

ان اللغة العربية ذات صرف معقد ونحو غامض ، وان الافكار تنصرف عنها لهذه الاسباب التي يستطاع ازالها بمحو جميع العقد منها ، وملاشاة الغموض ، اي بترك الحبل على الغارب ، لمن يشاء ، ويتحول الارباب فيها من قضايا منطقية ذات قواعد ، الى مجموعة من عناصر التشويش التي لا يضبطها منطق ، ولا تنظم

في قاعدة . وينسى هؤلاء او يتناسون ان جميع لغات الدنيا التي تتداولها المحافل المحترمة لا تخلو من قواعد وقياسات وانظمة وما اليها ، وان بعض اللغات التي يعتبرونها مثالية شواذ لا يقاس اليها ما في لغة الضاد .

وقالوا فيما قالوا :

ان الاحرف العربية في هندستها الراهنة ليست احرفا تماشي الحضارة التي بلفتها الدنيا ، وان الواجب يقضي باستبدالها بحروف فرنجية ، او بحروف لا هي بالفرنجية ، ولا هي بالعربية .

وما يرمون اليه من هذا الاقتراح واضح : انهم يرمون الى وضع حاجز بين الجيل الحاضر والترات العربي القديم الخالد ، انهم يرمون الى القضاء دفعة واحدة ، على ثمرات الفكر العربي في الاجيال الماضية وينسون او يتناسون ان التراث الفكري العربي القديم لا يشكل مفخرة من مفاخر العبقريّة العربية فحسب ، ولكنه يصل الينا ، وهو خلاصة التجارب الفكرية في المدى العربي ، وهو عصارة الفلسفة العربية في نظرها الى الحياة ، والى ما في الحياة من مشاكل .

وقالوا فيما قالوا : اشياء كثيرة لا تخرج عن هذا النطاق ، ولكنها مفضوحة النيات ، مكشوفة المعامل .

لقد استطاعت اللغة العربية ان تعبر عن ادق الخواج الانسانية ، وان تستوعب دقائق الفنون والعلوم في مختلف العصور الماضية ، فكيف تعجز الآن عن النهوض بهذه المسؤولية ، وقد سهلت امامها الوسائل التي لم تكن متوفرة في العصور الفائقة ؟ كيف تعجز الآن عن ذلك ، وقد تكشف للعلماء كثير من اسرار تراكيبها ومشتقاتها كانت مفقدة على الذين نقلوا اليها العلوم والآداب من الامم الغربية ؟

نحن لا ندعو الى الجمود .

اننا نعرف ان تقدم الحضارة يتطلب ان ترافق اللغة ما يظهر من اختراعات ، ولكننا نعرف كذلك ان اللغة العربية في وسعها ان تجاري التقدم مجارة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فهي لغة لها اتساعها في مفرداتها ولها دقتها في جلاء اخفى ما تنطوي عليه النفس من شعور ، ولها غزارتها في منح ما يتطلبه الراغب في استيعاب مكنوناتها الدفينة ، ولها جمالها الذي لا يماثله اي جمال في اية لغة اخرى .

النتيجة الا ماشاء الحق ، وبقيت اللغة العربية في حصن حصين من مناعتها الطبيعية ، ولم تؤثر عليها هجمات المتورين الحائقين .

والقومية العربية تعرف ان اللغة احد الاسلحة الفعالة في درء الاخطار المخيفة بها ، وهي لذلك تحرص على سلامتها حرصا لا يمكن ان يتسرب اليه الوهن ، وهي لذلك تمر بالدعوات التي تبدو بين الحين والآخر مرور الاحتقار والامتهان ، لانها تدرك ان الداعين لا يضمرون لها الاخلاص ، ولو اضمروه لتوجهوا الى ايجاد الاصلاح الحقيقي ، لا الى هذه الحملات التي لم تعد تخدع احدا .

ان لغة الضاد التي رافقت امتها في جميع الادوار وانبعثت منها الطرائف الخالدة ستظل تمشي هذه الامة في مراحلها الى الامام لانها جزء حي منها .

ان اللغة العربية فيها « حياة » يكاد المرء يلمسها كما يلمس الحياة في الكائن الحي الانساني ، وهي ، الى انها اداة للتعبير والتفاهم ، آصرة من آواصر القومية كان لها عملها في الاحتفاظ بهذه الروح التي نجدتها الآن في العالم العربي .

والاستعمار لم يكن على خطأ ، حين وجد فيها ، قوة من قوى العروبة ، بقاؤها على جبورتها ، نذير له بان الوحدة العربية التي يخاف منها ، باقية الاصول ، ينميا الزمن ، ويغذيها الجهد المخلص اربعمائة سنة او تزيد ، بقيت اللغة العربية تجابه الطغيان العثماني ، مجابهة ، خرجت منها فائزة منتصرة ، وارتد الطغيان مدحورا مكسورا .

وعادت قوى الشر التي حشدتها الاستعمار الحديث ، فشنت عليها الغارات المتواصلة ، ولم تكن